الرحيل عن الروح

الجزء الثاني

من

(زبدة وجبنة وعجوة)

رواية

حسن خلف حسين

بطاقة الكتاب

الرحيل عن الروح

حسن خلف حسين

رواية

رقم الإيداع : ٢٠٠٤ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي:
٩٧٨-٩٧٧-٢٣٢-١٠-٣٠
الطبعة الأولى
تاريخ الإصدار : يناير ٢٠٢٠

دار وادي عبقر للطباعة و النشر

رئيس مجلس الإدارة

جابر الزهيري

المدير التنفيذي

لمياء حمدي

الإخراج الفني و المراجعة اللغوية

أ / مها عبد الوهاب الجمل

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دار نشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب إلا بموافقة كتابية من الكاتب والناشر

دار وادي عبقر

للطباعة و النشر و التوزيع

بيت الإبداع .. و موطن العباقرة

wadiabkr.wixsite.com/wadiabkr

wadiabkar@gmail.com

www.facebook/ wadiabkar

www.youtube.com/ wadiabkr /

٠١١٤١٧٢٨٦٢٥

ت : ٠١١٠٠٤٧٤٥٧٥

ت : ٠١٢٢٤٩٦٩٠٤٨

ت : ٠١٢٢١٤٨١٨٥٦

إهداء

إليكم ...

يا من منحتموني الثقة أن يخُطّ قلمي حروفًا، ما كنت أتوقع وَقْعها عندي وعندكم، افتخر بِكُم وبِدعْمِكم لي، مؤكدًا لكم ... لَمْ ولَنْ أنسَى صنيعَكم معي وفضلكم عليّ ما دام قلبي نابضًا.

دام عِطر تواصلكم معي منثورًا أرجاء حياتي الأدبية والإنسانية.

المدين لَكُم جميعًا

حسن خلف حسين

كلمة المؤلف

الهِجْرة بأشكالِها وأسبابِها قد تكون على الذاتِ يسيرة، والعقل استوعب أبعادها، وربما النَفْس تَقَبّلتها، وهنا .. للإنسان له فيها جانب كبير من الاختيار، فكل من هاجر له ما سلك من طريق الهِجْرة، بينما التَّهجير له قسوته على الذات المُجْبرة، تتوه فيه الأرواح في مُدن التَّهجير بعد استقرارها، خاصةً يُلازم الرحيل خوفٌ من ملاقاة الموت الغادر، أو هَدْم حياة كان العيش فيها هادئ ويُصاحِبها الأمان وراحة بال باتت مُضْطَربة، يهزها الألم ووجع الاغتراب.

ما أَجْمَل العودة بعد الحنين الذي فاض النفوس وقت تَهْجيرها، هنا تطير الأرواح العائدة، تحضُن الأرض وتَشكُر السماء.

حسن خلف حسين

الفصل الأول

قيل ... يا جبل ما يهزّك ريح، برغم الهزيمة التي حلّت على الوطن عامةً ومدن القناة خاصةً، واحتلال الكيان الصهيوني لسيناء المصرية في الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ وكل مدن شرق قناة السويس، عدا مدينة الياسمين "بورفؤاد" التي كانت عليه عصية، ما جعل مدن القناة جبهات ثلاث في مرمى نيران العدو الذي يحدوه الأمل الزائف في احتلال هذه المدن.

غفل العدو عن أن هذه المدن هى مدن الصمود وشعوبها رمز الفداء، وأرواحهم تُقدَّم بيُسر للوطن والأرض، خير دليل ما حدث من أهالي بورسعيد الباسلة من بطولات وتضحيّات في حرب ٥٦، عزيمتهم باتت لا تلين مهما حدث من قوى غاشمة فاشية تتوهّم أن انتصارها محتوم.

من الموجِعات ... كان الشعب ينظر إلى كل جندي أنه سبب انكسار البلد وهزيمتها، وأيّدت تلك الهزيمة ادّعاء الكيان الصهيوني بأنه جيش لا يقهر، قليل من الشعب في البداية من تعاطف مع قواته المسلحة خاصةً، من قدّر الموقف حق تقديره بأنه ليس للجنود وذْر ارتكبوه، بل أوامر قادة أمرتهم بالانسحاب المُخزي

تاركين مُعداتهم وسلاح الشرف للدفاع عن الوطن فارّين نحو داخل الدلتا والصعيد، من نجا منهم والباقي رحمات الله عليهم.

ثلاثةُ أيّامٍ منذ دحْر الجيش المصري وفقدانه نحو نصف عتاده ومعداته، ويخرج الرئيس جمال عبد الناصر يُعلن تنحّيه عن السلطة واعترافه بمسئوليته عن الهزيمة، وبعد أن ينزل من موقعه كرئيس ليلتحم وشعب ذاق مرارة الهزيمة ولن يغفو له جفن حتى تعود الأرض المسلوبة وتُسترد كرامة وطن مُحيت في ساعات، ذلك على أن يتولى عضو مجلس الثورة زكريا محيي الدين مهام منصب الرئيس بصفة مؤقتة.

لم يُكمل الزعيم ناصر خطابه الموجه للشعب بالتَّنحّي، حتى خرجت الجماهير بالشوارع لتملأها بالصراخ، مطالبة إياه ألّا يتنازل عن مقعد القيادة ويقود الشعب والجيش نحو معركة التحرير واسترداد ما سُلب.

يأتي صوت مُذيعي الراديو والتلفاز اليوم الثاني لخطاب التَّنحّي، ليعلن قرار قائد مصر الرافض للانكسار، ومواصلته صدارة المشهد والقيادة وتخطّي العقبات، واحترامه لصوت الجماهير ومطلبه، والتخلّي عما سبق من رغبته في التَّنحي، ومن هنا بدأ التخطيط لحرب الاستنزاف والتي رسالتها لن يهدأ العدو ولن يستقر على أرض مصر المُحتلة والتي تمثلت في أرض سيناء الغالية، وتستمر هذه الحرب قرابة الألف يوم.

نورا وهي أرملة لزوج عاشت معه ردح من السعادة، والذي استشهد إثر غدر المستعمر الإنجليزي على ساحل بحر بورسعيد، تاركًا في رقبتها رعاية ولدين، كانا وقتها صبيين لم يتعديا العشر سنوات، رعتهما أيّما رعاية وما نسيت فضل أبوهما عليها، ليتخرج أحدهما وهو فاروق "روءه" من المعهد الصناعي، والثاني فاشلًا بإصرار وهو العربي "الكوز"، لكنها أصرّت على خروجه لبر الأمان بامتلاك محل لتأجير الدراجات وصيانتها.

انتاب فاروق "روءه" القلق على أمه "نورا" أم الكوز، يتصل هاتفيًا للاطمئنان عليها من الإسماعيلية، حيث يقيم وعمله بهيئة قناة السويس بمبنى الإرشاد... الاتصال جاء بعد عدة أيام من وقوع الهزيمة المريرة "٥ يونيو عام ٦٧" وتمام انسحاب الجيش المصري بعد أسبوع من سيناء منذ بداية الهزيمة النكراء.

- ألو .. أيوه يامّه طمنيني عنك وعن اخويا.

- لسه فاكر إن ليك أم والضرب بالطيارات على دماغها من شهر ... واليهود ولاد الجزمه كانوا هيدخلوا بورفؤاد لولا الجيش الله ينصره فرمهم وهربوا.

- يامّه أنا متابع كل حاجه وهنا في اسماعيليه الوضع برضه صعب .. عشان كده قدّمت على طلب نقل بورسعيد ونكون كلنا مع بعض .. يا نعيش سوا يا نموت سوا .. أنا مليش غيركم.

- يا ضنايا يا حبيبي طمرت تربيتي فيك يا روءه .. وانا اللي كنت فاكراك برّاوي وواطي.

- يامّه ليه كلامك ده .. اني حته منك .. وانتي في عينيا يا منوره الدنيا يا نورا.

- أيوه كده يا روءه دلعني .. حاكمن اني اموت في الدلع .. من يوم أبوك الله يرحمه ماحدش بل ريقي بكلمه حلوه.

- يامّه اسمعيني الله يخليكي .. بعد بكره هكون عندكم أستلم فيلا تبع الهيئه في بورفؤاد .. وأهلًا بيكي إنتي والعربي أخويا.

- قولت فيلا يا حبيبي؟!، أيوه كده انصفني مش زي اخوك اللي دايما حاطط راسي في الطين والسباخ.

- طب يامّه مع السلامه الخط بيقطع.

مشت أم الكوز تتبختر وتهز رأسها وخطواتها ثقيلة، مع ابتسامة عريضة لو رآها أحد بالشارع لقام بالتبليغ عنها لإيداعها وحجزها للعلاج النفسي.

في منزل أم صاصا، حيث يقيم ولدها صاصا وزوجته ليزا اليونانية، بصفة مؤقتة لحين تجهيز منزل مستقل بالحي الإفرنجي يليق بزوجة عن عشق لازال يملأ كل الحروف حين الحديث يدور بينها وبين زوجها العاشق وأبويه أيضًا.

أم صاصا:

- قوم بقى يا عريس انت ومراتك .. بقينا الضهر يا ضنايا.. قوم جهزت لكم الفطار.

- حاضر يامّه.. صحّي أبويا الأول.. واني وليزا ثواني نكون عندك بعد الحمام.

أبو صاصا:

صباح الخير يا ام صاصا .. ما عرفتش أنام طول الليل .. واقول في نفسي بقيت صايع خلاص .. لا شغله ولا مشغله .. واقعد طول اليوم ع القهوة العب "جوكر".

- ليه يا اخويا بتقول كده؟ بعد الشر عنك من الصياعه .. دا انت سيد الرجالة وكسّيب.

- يا ست الكل قفلوا الكنال .. يعني لا فيه مراكب جايه ولا رايحه .. وشغلانتي بمبوطي قايمه ع المراكب والسياح اللي فيها.

أم صاصا مقاطعة بحسرة مخفية:

ولا يهمك .. ياما دقت عالراس طبول .. تبات نار تصبح رماد يا عيني.. مصروف البيت أني عامله حسابي وما تشلش هم .. ربك يسترها معانا .. كلها كام يوم وينفتح الكنال تاني بعد ما نمسح إسرائيل من على وش الأرض .. وترجع تاني ياخويا تنور الكنال مع زمايلك .. وتجيبلنا الخير اللي ياما مليت

البيت منه، سيبها على الله وربك يفرجها.

يُقبِل صاصا ومعه ليزا في حُسنها ليقول:

صباح الخير ست الكل وسيد الكل، مالكم شايفكم مأيّرين؟ انتوا متشاكلين؟

أبو صاصا مستغربًا:

- فال الله ولا فالك.. إحنا سمنه بلدي على عسل أبيض.. كنت بحكيلها على وقف الحال اللي بقينا فيه أنا وانت في الشغل.

ليزا بابتسامة رقيقة:

صباح الخير مامي وبابي صاصي، إيه يعني وقف حال صاصي؟

- يعني مفيش شغل في البحر .. الكنال قفلوه خلاص ... اللي كان فيه رزقنا.

ليزا بحزن دفين:

هو موضوع حرب ده يكون وقت فيه كتير صاصي؟

أم صاصا تواسيها قائلة:

لا ليزا حبيبتي .. كلها كام شهر وكل حاجة ترجع زي ما كانت واحسن .. وانتي ما تخافيش انتي في عينينا .. انتي واللي في بطنك.

- انا مش خايف مامي .. أنا أقول كلنا نروح بلدي نعيش في " أتينا " نقعد هناك ونبعد عن دمار حرب وموت.

- يا بنتي دمار إيه وموت إيه بس.. يا بنتي إحنا ما نسبش بلدنا وبيتنا ونجري ..

العمر واحد والرب واحد.

ينتهي أبو صاصا من الفطور ويوجه كلامه لولده قائلًا:

يلا يا صاصا خلّص فطار.. وانى هسبقك على قهوة البدري عشان نروح نتسجل في الدفاع المدني مع بعض في المحافظة .. سلامو عليكو

- عليكوا السلام ياالخويا، ربنا معاكوا وينصركم على مين يعاديكوا.

دخلت نورا " أم الكوز " منزلها ولازالت البسمة البلهاء تملأ وجهها الوردي المنتفخ بطبيعته وتنادي:

سوكينة .. يا سوكينة.. يا بت يا سوكا .. ردي عليا نَفَسي اتقطع الله يقطعك.

سوكينة:

نعم يا أمي .. خيرا؟ إيه اللي نزلك بدري كده؟

- إيه يا بنتي نايمه على ودانك؟ بقالي اسبوع انده عليكي وانتي عطياني الطرشة والعمشه.

- لا والله يا أمي .. كنت أرضّع حفيدك فاروق عشان ينام.

- إذا كان كده معلش .. نوم العافية .. بس لما يصحى تجيبهولي ألعب معاه بيوحشني ابن الهبله .. يووه معلش يا سوكا سامحيني ولساني الزفر اللي عايز قطعه.. بعد الشر عليا.

- لا عليكي يا أمي .. سوف أفعل.

مَصْمَصِمة شفايف قوية من أم الكوز، ثم إلقاء وسادة صغيرة بعيدًا وتقول:

- يا بنت الحلال مش هتبطلي كلامك النحوي ده اللي بيشلني ويجيبلي الخانكة في عقلي.

- عفاكي الله يا أمي (وتضحك "كخ ..كخ ..كخ").

- وياريت كمان تبطلي ضحكتك اللي "كوخ كوخ كوخ " دي .. يا حبيبتي دي تقوليها لابنك لما يعملها على روحه.. (تضحك هوء هوء هوء) .. آدي الضحك والا بلاش .. تحسي إنها زي ضحكة الجدي لما يحس أنه بقي تور بسلامته .. يلّا يا ضنايا سامعه صوت النبي حارسه بيعيط .. قومي هاتيلي "روءه " روح قلبي و فشتي من جوا .

برغم الحُزن الساكن بين جنبات المدينة والشارع وكذلك مقهى المعلم العربي البدري على ناصيته، إلّا أنك تلمح في العيون إصرار على رفض الهزيمة، وعلى الجميع أن يُقدم للبلد أقصى وأغلى ما يستطيع، لتعود كما كانت حُلوة الحلوات.

معظم شباب الشارع ورجاله يجلسون على المقهى، حيث أن غالبيتهم له علاقة بعمل البحر وقناة السويس.

أبو صاصا يتصدّر الاجتماع ويقول بحماس:

بصوا يا رجالة عشان بس الأمور تبقى واضحة.. كلنا هنروح بربطة المعلم نسجل أسامينا في "الدفاع المدني" ونبقي مسئولين عن الشارع بتاعنا.. وهناك ناخد منهم التعليمات ننفذها بحذافيرها بدون أي هجص مننا ولا فتايق.

"النوصه" بنفس الحماس:

آني روحت اطَّقس .. وعرفت من صاحبي في الشارع اللي ورانا .. إننا لازم نبني ستاير طوب قدام البيوت.. ونخلي الناس تدهن الشبابيك أزرق عشان النور ما يبانش للطيارات .. ونلزق الازاز بلزق جامد عشان لما يتكسر ميعورش حد وهو بينطر .. ونقسّم نفسنا مجموعات ورادي ننبه الناس قبل الغارة بتاعت اليهود ولاد اللئيمة .. وعلمت إن المحافظة هتعمل مخابئ عشان الناس تنزل فيها تحت الأرض عشان محدش يموت ولا يتصاب.

" البيو" صبي القهوه:

آنى هاكون معاكم بعد إذن المعلم وهسهر طول الليل.. واني كَيبيف سهر.. والمصحف على عينيك ما تقول لأه يا معلم.. ويارب ابن اختك بتاع الحشيش الصايع يطلع من السجن بالسلامه ما أنت قايل لأه.

المعلم العربي كاظمًا غيظه:

خلاص يا بيو موافق .. بس وردية بالنهار في القهوة تكون على دماغك لوحدك..

عشان هاكون في وردية بالنهار دفاع مدني .. لأن صحتي على قدي .. طول الليل نايم زي الفسيخة مش عارف كرشي ورا والّا قدام .. ربنا يديكوا الصحة .. محدش يخايل عليا .. إنما مش ملاحظين الشيخ طه مسقّع ودانه مع إنه لِبلِب إسم الله عليه في الكلام.

الشيخ طه بتهكُّم:

خليك في حالك يا حاج العربي .. من ساعة البيانات بتاعت الطيران وأنا مصدوم .. كل ما افتكر اننا وقعنا ٢٥ طيارة وبعد ساعه بيقوا ٨٩ طياره، أقول يا ناس هو إحنا بنصطاد سمان مهاجر ودايخ .. دايما باقول على عبد الناصر أنه يجعجع...

تعالت أصوات الاعتراض من الحضور جميعهم على وصف الشيخ لزعيمهم، وانطلق الشاب الدوح بحوار شرس للشيخ:

- شوف يا شيخ طه يا حبيب الملك فاروق وكأنك كنت مالك للسرايا وعشرين ألف فدان وخدوهم منك بعد الثوره، دي بلدنا يا شيخ مش بلد عبد الناصر، ترضى بذمتك حد من الأنجاس دول يدخل بيتك ويعتدي على حرمته؟ فوق بقى.. دا انت لو تعرف اللي حصل في راس العش أول الشهر واللي حكهولي واحد صاحبي من هناك كنت تطلع تأذن بين الضهر والعصر.

النوصه في شغف شديد يسأل: قولنا يا دوح اللي قاله صاحبك ورحمة أبوك.

الدوح يتحدث بهدوء وكأنه رجل المخابرات الحربية الأول:

يوم واحد في الشهر دوت ولغاية يوم أربعة منه، سرية دبابات إسرائيلية تحركت من عند راس العش على بورفؤاد والكرنتينة عشان تحتلها بنت الهبلة.

معظم الجلوس سُعداء مبهورين، ويلتقط الحوار شاب بدا على ملامحه أنه صعيدي المنشأ.

الشاب:

مجموعة صاعقة مصرية نسفوها .. وتم تدمير ٣ دبابات و ٥ عربيات ومنعوها إنها تدخل بورفؤاد .. واستشهد قائد مجموعة الصاعقة ظابط بدبورتين اسمه "جابر الجزار" .. واتقتل معظم العساكر الإسرائيلية .. مع أن كان طيرانها عامل غطا عليهم ويدعمهم.

الدوح بغيظ:

سامع يا شيخ طه .. بقولك بورفؤاااد .. يعني المعدية .. ويبقوا في بورسعيد جوه بيتك.

يتدخل أبو صاصا بحكمته لفض اشتباك الحديث بين الدوح والشيخ.

أبو صاصا:

يا دوح صلي ع النبي .. الشيخ طه راجل وطني وبيحب بلده .. وإن شاء الله هيخطب الجمعة الجاية عن المعركة دي عشان يرفع من معنويات الناس..

ويقولهم إن جيشنا بخير.. ويخفف عننا كلنا المرارة اللي في قلوبنا .. يلا بقي يا رجاله عشان نلحق ميعاد تسجيل الأسامي في المحافظة.

بعد عودة ميمي زوج بطة ومعه بعض المال نتيجة عمله باليونان لمدة عامين، نمى الطموح لديه في أن يقطن بحي الإفرنج، ويستقل بحياته ومعيشته عن حماته أم صاصا، أراد أن يكافئ زوجته عن هَجْره لها هذه المدة والتي عانت فيها آلام المُعلّقة، لا سيما بعد فقدها لأحد ولديها غرقًا في البحر، شاء الله أن يعوضهم طفلة جميلة الملامح وأسموها "روحية" على اسم جدتها أم صاصا اعترافًا منهما بتضحيات هذه المرأة الحنون، والتي تعطي دونما انتظار مقابل من أحد.

بيوت حي الإفرنج غاية النظام والنظافة، تطل جميعها على شوارع واسعة مرصوفة، والبواكي أسفل العمارات، وأرصفة للمشاة زرعت بانتظام عليها الأشجار باتقات، بينما الخدمات وأماكن الترفيه من دور سينما ومسارح إضافة للحدائق العامة تحوط جوانبها، والطرز المعمارية الأوروبية.

البيوت تقف شامخة تتحدث عن مدى اهتمام "فرديناند دليسبس" صاحب فكرة حفر قناة السويس، بتوطين المهندسين الفرنسيين والإنجليز وغيرهم من العاملين

بقناة السويس في أماكن راقية، وانفرادهم بمنطقة بعيدة عن السكان المصريين الذين يقطنون حي المناخ والعرب بمساكنهم الأدنى مستوى.

تلك العنصرية في التعامل مع أصحاب البلد والأرض في بداية إنشاء هذا الحي، وصلت لحد أن يقام سور عازل لهذا الحي لا يسمح للمصريين الدخول إليه إلا بتصريح دخول للعمل ثم المغادرة.

تأميم الزعيم جمال عبد الناصر لقناة السويس كان سببًا في مغادرة المرشدين والمهندسين الأجانب بورسعيد، مما جعل بعض أهالي المدينة ينعمون بسكن متميز بديلًا عن الأجانب المغادرين له.

اختار ميمي وبطة أحد الشقق الواسعة، وزيادة في الرفاهية كان بها مصعد كهربائي بديع الصناعة والشكل الجمالي، استيقظ ميمي مبكرًا وقد تملّكه القلق والحُزن من المجهول المنتظر جراء الهزيمة الأليمة التي ما أحد يتوقعها.

بطة تبحث عنه في أرجاء المنزل فوجدته في التراسينة (البلكونة) يُدخن بشراهة وشارد الذهن.

- مالك يا ابو الرزه شكلك ما نمتش وشايل الهم .. ايه اللي تاعبك يا اخويا؟

- أديكي شايفه الحال يا بطة.. القرشين اللي معايا قربوا يخلصوا .. والورشة اللي فتحتها حالها هيقف مع حال البلد .ز مش عارف أعمل إيه.

- كل عقدة وليها عند الكريم حل .. سيبها لله وهاتفرج من أوسع أبوابه .. أهو

احنا اللي يسري ع الناس هيسري علينا .. إن الناس سابت البلد هنسيبها وإن قعدوا أدينا قاعدين وربك الرزاق.

- بفكر يا بطة أرجع اليونان أشتغل هناك شغلتي . دا حتى صاحب الورشة بيبعت لي جوابات يقولي مكانك موجود.

بطة بانفعال وحسرة وصوتها يعلو:

بتقول ترجع فين؟ قول تاني كده .. والنبى إن فكرت في الرجوع لأسيبلك الجمل بما حمل وأروح أقعد عند أمي .. بس قبلها كل واحد يروح لحاله.. وانت بقى روح تتسرمح زي زمان .. بقيت مش عاجباك يا ميمي بعد صبري ووجعي.. ولما مالاقيكش جنبي وابننا بلعه المالح .. هي دي آخرتها عايز تسبني تاني؟ .. آه ما الأجانب عيونهم زرقا ومقلوظين .. هاروح فيهم فين.. أصيل يا ميمي ... (بكاء بحرقة).

- يا بت يا هبلة هو فيه واحدة تملى عيني غيرك؟ ده بس تفكير .. بلاش عبط وبطلى عياط عشان خاطري .. ألا صحيح بتحبيني يا بطة للدرجة دي؟

- بس يا راجل يا ابو عين زايغه .. لما اشوف روحية بتعيط سامعه صوتها .. قال بحبك قال !!.. شوف الخيبة يا ولاد.

يدخل الرزه ابنهما على أبيه قائلًا وهو يفرك عينيه:

- صباح الخير يابا

- مش قولتلك قول يا بابا زي العيال الجيران اللي حوالينا، ينفع كده يا رزه؟
- طب ما تقوليش رزه تاني، العيال أصحابي سمعوك قبل كده وقعدوا يتريقوا عليا وينتقوروا، ويقولوا لي إنت الرزه وأختك سمكة.
- ها ها ها والله عيال ظراف .. قولي بقي عملت ايه في الامتحان امبارح؟
- الأبلة اللي بتراقب علينا قعدت تعيط طول الامتحان، سمعت إنها من اسماعينيه وخايفه على أخواتها هناك، وسبتنا قعدنا نغش من بعض، وانا حليت كل الورقة.
- طب يلا يا غشاش، أمك حضرت الفطار وبتنده علينا.
- مش قولنا تقول مامتك مش أمك ؟
- طب يلا يا لمض يا روح مامتك.

قررت أم الكوز " نورا " زيارة جارتها السابقة بطة ابنة أم صاصا، لتبارك لها على عتبتها الجديدة في حي الإفرنج، هاهي تُجهز بعض الحلويات، أوصت ولدها العربي الكوز بشرائها وكأنها ذاهبة إلى الأرياف، أيضًا أوصت الكوز أن يرعى البيت ومحل الدراجات حتى عودتها سالمة إلى أرض الشارع السعيد برحيلها عنه، كان برفقتها سوكينة وحفيدها الطفل فاروق، تحْمله على صدرها تارة، وتارة أخرى فوق كتفيها، تتدلى قدميه تصفع وجهها أو الصدر منها، سعيدة بما يحدث منه أنه الحفيد مهما فعل.

دخلتا مدخل العمارة الفخم وانشرح الصدر منها وقالت:

- اللهم صَلى على كامل النور ... إيه الأناجة دي يا ولاد؟! .. والله واتنصفتي يا بطة يا بنت روحية وربنا عوض صبرك خير .. ما تمدي يا سوكة .. ماشيه ياختي كده زي المعزة الفسكانه .. شوفي بقي لما نطلع عندهم بلاش النحوي بتاعك وضحكتك كخ كخ كخ .. دا احنا في الافرنج يا دالعدي .. يلا بقى نركب الساسانسير .. شوفي الأملة اللي انتي فيها يا بنت الشيخ طه.

دخلت أم الكوز المصعد وأغلقته، ويبدو أن هناك من استدعاه بالدور الأخير فتحرك تلقائيًا، وهنا تصرخ أم الكوز بينما المصعد صاعدًا بها وتقول:

- يا ناس وقفوه .. يا ناس باين عليا هموت وانا في شبابي .. يا عالم إلحقونا .. هو احنا طالعين السما والا إيه ؟ .. بعد كده ننزل نتفتفت حتت.. ما يكونش واخدني أقعد مكان القمر اللي غايب؟ .. الله يجازيكي يا بطة .. جزاتي إن جيبالك حلويات بالشي الفلاني وجايه .. انت فين يا عربي يا هباب البرك؟ .. إنتي بتضحكي عليا يا بت يا سوكة؟.. يا بت صوتي يلا وقولي الحقونا يا هووووه .. يا بت ده وقت كخ كخ كخ؟

- يا أمي لا تجزعي .. أنه القدر.

- يادى أم النحوي بتاعك اللي فاقع مرارتي .. أهو وقف الزفت .. الحمد لله اني عايشه ربنا عالم بحالي .يلا يا شملوله ننزل ع السلم ان شاالله نوصل بعد أسبوع

عرفت أم الكوز منزل بطة عندما رأت حذاء "باتا" الخاص بالرزه، طرقت الباب، ففتحت لها بطة مُرَحبة مع العناق والقبلات وكذا سوكينة.

بطة بسعاده:

- أهلا يا خالتي .. احنا زارنا النبي .. نورتي البيت يا سكينة.

أم الكوز بعدما جلست فوق الصالون المُدهب واستلقت للخلف قالت:

- والله نفسي اخد بيت زي ده للوله العربي .. بس خايفه يفضحني قدام الناس الذوات اللي هنا .. وأخوه اسم النبي حارسه جاي بكره ياخد فيلا في بورفؤاد .. طول عمر الوله ده مُرْزَق والعربي فقر دكر ونتايه.

سوكينة وقد انفعلت على سيرة زوجها الغير عطرة وقالت:

- يا أمي إنها الأرزاق .. قد قسمها الله بين عباده و .....

أم الكوز مقاطعة لها بِحِدّة:

- مش إحنا ياختي اتفقنا ننسى طريقة كلام فيلم ألمظ وعبده قبل ما نطلع هنا .. شوفتي يا بطة شلل الأطفال اللي كل ساعة تحس بيه خالتك وربنا بيزيد...

بطة في مودة ورجاء:

- تشربي إيه خالتي وانتي يا سكينة .. والا اقولكم اعملكم غدا وبعدين تشربوا اللي انتم عايزينه.

- تعيشي يا بطة يا بنت الغالية .. لسه قايمين من على الغدا وجينا عدل.. بس لو

فيه مهلبية أو رز ولبن عشان الوله روءه يبقى كتر خيرك .. وان كان يبقى برضه رز ولبن ليا عشان سناني.

- من عينيه يا خالتي هاجيب تلاتة رز ولبن.

تطرّق الحديث بين ثلاثتهم .. عن تأثير الحرب على البلد ووقْف الحال مع خراب البيوت التي كانت عامرة بخيرات الله في مدينتهم المنكسة أعلامها ونفوس أهلها عقب النكسة.

لصوات شديدة الإزعاج تقترب من الشارع الطيّب، تشق السكون وترفع درجة التوتّر لدى ساكنيه، يظهر في بداية الشارع صف من دبابات الجيش المصري لتقديم رسالة طمأنينة لشعب المدينة، الذي لم ولن يقتنع أن هناك هزيمة ساحقة لحقت به وبالوطن.

انتشرت الدبابات والعدد أربعة منها وقد اصطفت على الجانب الأيمن للشارع، لم ينتظر أهل الشارع اكتمال اصطفافهم حتى أطلقوا صيحات الفرح والتصفيق، ولم تنس سيدات الشارع وفتياته المشاركة في الاستقبال الحار، وهنّ واقفات في شرفات منازلهم، يُطْلقن الزغاريد مُلوحين لجنود أطقم الدبابات بعلامات النصر، وسرعان ما أعددن الشاي مع المياه الباردة لرموز من جيش شعبهم الذي لا يعرف الاستسلام أو الانحناء، إن أصابه المرض تمالك وقاوم

حتى قهر الفيروس الذي أصابه بجلد وعزيمة لا حد لها.

رجال الشارع والشباب ذهبوا ليصافحوا الضابط قائد المجموعة وجنوده قائلين:

- أهلا بيكم يا وحوش، احنا معاكم ووراكم، تعوذوا اي حاجة يا أبطال تأمرونا، ما تنسوش أنتم في بلد ٥٦، بلد العزة والنصر، كلنا بنحب عبد الناصر، وبنحب جيش مصر، وربنا هينصرنا على موشي ديان وجيشه وهندمر إسرائيل بإذن الله.

ارتفعت الروح المعنوية للجيش في ساعات، انسحب مغصوباً ومذلولاً لم يُحارب ولم يُواجه، وعليه تنفيذ أوامر القادة الصادرة منهم في برجهم العاجي المصنوع من الوهم والتضليل.

أتى المساء الحزين متسللًا لقلوب ما تعرف طعم الحزن وقد أُجبرت عليه، رجال الشارع وشبابه تجمّعوا في منتصفه بقيادة أبو صاصا، لتوزيع أدوارهم في "الدفاع المدني" بالوردية المسائية، كلًا منهم يراجع دوره مع قائدهم حسب التعليمات التي تلقّاها من قيادات الدفاع الشعبي بالمحافظة.

أبو صاصا بحزم القائد:

- شوفوا يا رجالة .. كل واحد مننا عرف مطلوب منه إيه بالظبط .. علينا نكون صاحيين وعينينا مفتحة، ولاد الهرمة الإسرائيليين ممكن يعملوا أي حاجة ما يفرقش معاهم بين عسكري وعيل صغير أو واحدة ست.. ننبه ع العيال أي حاجة

يلقوها ع الأرض ما يمسكوهاش .. تكون فيها تفجير .. تكون شبه القلم يفتحه يضرب في وشه .. زي ما حصل ع البحر أول امبارح وشوهت وش الوله.. هنراجع دهان الشبابيك كلها بالأزرق .. ونثبت لزق الازاز.

النوصة:

راجع لنا يا ابو صاصا نعمل إيه وقت الغارة؟

أبو صاصا يتنحنح كما الخبير ويقول:

- طبعا الصفارات المتقطعة هتضرب تنبهنا إن فيه غارة جوية .. كده يبقى فيه هجوم .. ساعتها نتحرك متوزعين ع البيوت نقولهم يطفوا النور .. ويبقوا في بيوتهم ساكتين .. ده طبعا لغاية ما تتبنى المخابئ .. بعد أيام هيبقوا يروحوا يقعدوا فيها .. ترجع الصفارة الطويلة لما تضرب تبقى الغارة خلصت ويرجعوا لحياتهم .. لكن وقت الغارة مفيش خروج من البيوت ولا حركة في الشارع، يلّا يا رجالة اتوزعوا وربنا معانا.

انطلقت صفارة الإنذار بصوتها المُتقطّع المزعج لراحة الآمنين منتصف الليل، لتعلن عن غارة جوية لطيران العدو يقترب من مدينة الحب والجمال.

داخل بيت أم صاصا التي هرولت نحو ولدها وزوجته، وقد وجدتهما يحتضنان بعضهما البعض، فأصابها الحرج واعتذرت لهما، ناداها صاصا:

- تعالي يامّه يا حبيبتي .. انا فكرتك نايمه ما رضيتش اقلقك .. تعالى في وسطنا يا ست الكل.

- ربنا يهنيكم ويحفظكم يابني .. أبقى انزل شقّر على أبوك واطمن عليه.

- ماني قولتله أبقى معاك في الدفاع المدني .. قالي خليك مع مراتك الحامل وأمك الكبيرة تراعيهم.

الأم معترضة:

- هو قالك أمك الكبيرة؟ دا هو اللي شاخ وشاب وبيهوق ويلوق .. ولسه بيعافر ويتنح في الدنيا بعد ما شبع منها .. طب دانا أصغر منه بخمس سنين بحالهم.

ليزا:

- ربنا يعطيكي العمر كتير مامي صاصي .. انت تبقى جميل وشباب طول عمر مامي.

- سامع الكلام اللي يرد الروح يا صاصي .. مش انت يقولك أمك الكبيرة تعمل عبيط .. الهي وانت جاهي ينصفك يا ليزا بنت سيلفا هئ هئ هئ.

بيت أم الكوز لا يختلف كثيرًا من تفاعل مع حدث الغارة الجوية، اقتحمت أم الكوز غُرفة نوم ولدها وخطفت حفيدها لتضمّه في حضنها، وهو يصرخ كأنّه أُصيب بالصرع من فِعلة جدته وقالت بصوت جهوري:

- ما تخافش يا ضنايا .. يلّا نخرج ونسيب العصفورين يصوصووا والقنابل هاتنزل ترف على دماغهم.

الكوز:

- يامّه مالك بس متلهوجة كده على طول .. وتدخلى علينا كده تعفرتينا...

- عفريت لما يلبش جتتك انت واللي جنبك أم ضحكة جنان كخ كخ كخ .. كمّل نوم .. ولمّا الغارة تخلص أبقى أصحيكم .. يا خيبتك يا إنصاف.

دقت أجراس الحرب وما صاحبها من ترقّب و فزع على الشارع والمدينة الطيبة، لاصوت يعلو فوق صوت المعركة كما قالها الزعيم جمال حبيب الملايين، أزيز الطيران الإسرائيلي أصبح في سمع وبصر أهل المدينة تزيدهم صلابة، دوي المدافع المصرية الموجّهة نحو شرق القناة المُحتل يعدو يريد بسط السيطرة على طول الجبهة، لكن قواتنا المسلحة لم تدع له الفرصة، بل يوماً بعد يوم تزداد الثقة بين أفراد الجيش المصري، صانعي ملْحمة ينكرها التاريخ ويتوقف أمامها طويلاً على مدار ألف يوم .. هي فترة الاستنزاف.

من الطرائف أن أهل القناة كانوا يُطلقون على المدافع أسماء مثل " الشيخ علي" و " الشيخ صالح "، لدرجة أن الأطفال كانوا يهلّلون عند إطلاق قذائف تلك المدافع قائلين غير خائفين "اضرب يا شيخ علي".

تمر الأيام ثقيلة متشابهة، إلى أن يأتي يوم ملْحمة من ملاحم التحدّي لتغرق أكبر قطعة من الأسطول الإسرائيلي قبالة سواحل بورسعيد، بواسطة زورقين بحريين مصريين بقاعدة بورسعيد البحرية.

يأتي يوم الأحد الموافق ٢٢ أكتوبر عام ٦٧، وقد التقت مجموعة الدفاع المدني بالشارع على مقهى المعلم العربي البدري في حالة فخر وسعادة بما أنجزته قواتهم البحرية بالأمس بإغراق المُدمِّرة إيلات.

الكُل يهنئ الكُل، ليدْلو كلًا منهم بدلوه عما قرأ أو سمع أو لا يعرف من معلومات عن هذه الملحمة البطولية، والتي تُعد سابقة لم تحدث من قبل في تاريخ البحرية العالمية.

الشيخ طه كعادته متشككًا:

- ألّا صحيح .. فيه لنشات ضربوا صواريخ على مُدمرة إسرائيلية وغرقت؟ والّا برضه مهيصة زي اللي فات؟

"الدوح" متحفزًا كعادته لكلمات الشيخ طه المُحبطة:

- لا يا سيدنا الشيخ البركة.. الجرايد كلها كتبت والراديو والتليفزيون .. لو كنت بتشوف كنت خليتك تقرا الجورنان اللي معاي .. والا تاخذه تحسس يمكن صاروخ يطلع يفجّر صابعك وأنت بتحسس ع الصوره...

الشيخ طه منفعلًا: صاروخ لما ياخد أجلك يا دوح يا سليط اللسان والنوايا.

- ما هو انت دايما تشك في كل الحاجات الحلوه اللي بيعملها الجيش.. كفايه دماغنا ورمت يا سيدنا .. قوم اذان العصر على وشك عشان تسمعنا حاجة تانية غير كلامك الدبش.

- دبش لما ينزل على راسك يمحيها من طيرٍ أبابيل.

النوصه:

- شكلك كده مش هتجيبها البر يا عّم الشيخ، هاتها البحر ولنش يلسعها صاروخ وتغرق، ها ها يلّا أوصلك الجامع يمكن ربنا يسامحك والصاروخ يقلش ها ها ها ها.

ضحك الجميع عدا الشيخ طه، بالطبع الذي انصرف ممسكًا بيد الوله "النوصه" الأصيل - على حد قوله -

المعلم العربي صاحب المقهى يُحدّث الدوح:

- ما تقولنا يا دحدوح اللي مكتوب في الجورنان عن اللي حصل.

الدوح منسجمًا بما لديه من معلومات: شوف يا معلم .. والكلام للجميع .. إمبارح كان فيه مدمرة إسرائيلية ضخمة بتستفزنا وتدخل ناحية شط بورسعيد .. واحنا عارفين إن فيه لنشات صواريخ في القاعدة البحرية...

يتدخل أبو صاصا وهو أعلم بما في القناة أثناء عمله ويقول: اتغاظ قائد اللنشات وطلب من القيادة أمر بضرب المدمرة واسمها إيلات .. لما سمحوا له راح

لاسعها صاروخين منهم واحد في نصها .. النار ولعت فيها وغرقت ومعظم الطقم نزل ياكله السمك الجعان.

صاصا وقد انضم للجلسة وطلب مشروبات للجميع وأخذ يتحدث:

- والله النهارده يوم عيد .. فرحت قوي لما سمعت الخبر .. واللي فرّحني أكتر إن إسرائيل قعدت تتذلل للأمم المتحدة عشان عبد الناصر يوافق إنهم يدخلوا الميه بتاعتنا ينقذوا الغرقانين ويدوروا على المفقودين ..عبد الناصر طلع إنسان ووافق.. بس هما عاملين زي ديل الكلب عمره ما يتعدل .. أكيد من بكره هيعملوا غارات من سمهم ونارهم .. حتى معظم الناس في بورسعيد متوقعة وخايفه وكتير منهم بيفكر في تهجير عياله لبلاد فلاحين عشان خايفين على حياتهم ويبقوا بعيد عن الضرب الأعمى اللي ما بيفرقش...

لمّا رأت القيادة العسكرية للمدينة، رغبة بعض الأهالي النزوح المؤقّت خارج بورسعيد، إيماناً منها بالحرص على أرواحهم خاصةً الأطفال والسيدات والشيوخ منهم، أعدّت العدة لذلك ومعاونتهم على الخروج بأمان من الجهة الغربية للمدينة طريق دمياط وبحيرة المنزلة، ليتم تهجيرهم داخل الدلتا بعيداً عن القصف المنتقم للعدو لا سيما بعد غرق أكبر مدمرة له.

تحرّكت أفواج السيدات والأطفال والشيوخ صوب بحيرة المنزلة، ليجدوا المتطوعين لمساعدتهم في ركوب مراكب الصيد الشراعية، تقلّهم إلى ضفة

البحيرة الأخرى بمدينة المطرية دقهلية، تنتظرهم أتوبيسات توزعهم على القرى والمراكز داخل الدلتا وفق خطة أعدتها المحافظة، تلك الهجرة الاختيارية الأولى لأهل المدينة، يتركون بيوتهم حاملين معهم أثاث خفيف وحزن ثقيل، مع حنين وشوق قبل المغادرة.

استقبلهم أهل القرى والمراكز استقبال حاني وعطوف، يساعدونهم على الإقامة في فصول المدارس، تفصل بين الأسرة وجارتها ملاءة سرير أو كوفرتة، تتعدم معها الخصوصية، والحمامات مشتركة.

برغم طيب الاستقبال من أهل القرى لمن هجروا أو نزحوا إلى قراهم من مدينة البهجة والجمال بورسعيد، كانوا ينظرون إليهم لاجئين يستحقون الشفقة، وتفضحهم عيونهم حين النظر إليهم، هذا بالإضافة إلى غرابة لهجة النازحين وحتى ملابسهم، من بنطلون وقميص وفستان أوجيب البنات، تلك اختلافات جعلت أهل القرى يُطيلون النظر إليهم بدهشة تجعل المُهجّرين غارقين في الخجل، كأنهم طير ضعيف غريب الريش والتغريد، سقط في عش الدجاج، بينما أصحاب العش من دجاج في غرابة والطير في ذهول وانكسار أتى.

المهجّرون هنا أطفال وشيوخ ونساء، قد يخفف حدة هذه المعاناة وآلامها، وربما أمل الجميع في العودة لمدينتهم ومنازلهم جعلهم منساقين نحو هذا الأمر بليونة وصبر المضطرين .

الفصل الثاني

بدأت حياة التقشُّف تُحيط بجميع الأُسر، في نفقاتِهم والتي كانت تتّسم بالبحبوحة وبسط الأيدي، وقد اشتهر أهل المدينة ببعض الحِكم مثل " اللي بيجي في الريش بقشيش" و " الجود من الموجود" وما حلَّ عليهم جراء غَلْق قناة الخير ووقف السياحة أجبرهم على نمط اليد المغلولة والمُجْبرة على ذلك.

أبو صاصا توجّه لمحل الكوز طالبًا منه ما تيسّر من مال، لدعم رجل توقّف عمله بالبحر فقال الكوز:

- عينيا يا عم ابو صاصا .. كلنا نشيل بعض.. انت بس تؤمرني (ومد يده وأعطاه جنيه) .. إن عوزت تاني خير ربنا موجود وقت زنقته يجيلي .. دله على المحل وحياة ابنك صاصا.

- شكرًا يا عربي .. عارفك رجولة .. ربنا يلبني ما يوقعك في ديقة .. والله لو تعرف حكايته تصعب ع الكافر.

- قولي يا ابو صاصا وفطمني وادِيني عنوانه.

- وانا ماشي مع عمك شلبي زميلي البمبوطى ماشيين في سوق الروضة .. لقيت لمّة وناس ماسكه راجل عمّاله تضرب فيه بواني وشلاليت .. بيقولوا إنه خطف عشرة جنيه من واحد كان بيشتري سمك .. بصينا ع الراجل مش وش حرامية وشكله محترم .. دخلنا خلصناه من أيديهم والكل طبعًا بياجر .. سمعنا حكايته تقطّع القلب وهو بيعيط ويقول:

- ولادي بقالهم تلات ايّام ماكلوش، الراجل اللي خطف منه العشرة جنيه اتشحتف عليه وقعد يبوس فيه ويقوله سامحني .. وأعطاه خمسة جنيه وحلف له بالله انه سالف العشرة جنيه .. وان ماكنش كده كان ادهالوا كلها.

- طب واحنا هنتفرج كده على راجل زي ده .. ما الخمسة جنيه تلات اربع ايّام وتخلص .. هيعمل ايه الغلبان ده.

- كلامك ده عين العقل يا عربي .. احنا قولنا للراجل يفوت علينا النهارده بالليل يشرب شاي معانا على قهوة البدري .. نكون احنا لمينا له كام جنيه يساعدوه.

على جانب آخر مازال المُهجّرون من الشارع وأهل المدينة باختيارهم أطفالًا ونساءً وشيوخًا بصفة مؤقتة إلى داخل الدلتا، هربًا من القصف العشوائي لسفلة الحروب والذي ما توقّف منذ غرْق المُدمّرة إيلات ..

أم حنداً تبكي بحرقة في غربتها التي استقرّت في إحدى قرى مركز السنبلاوين وتقول:

- يا لهوي يا ولاد .. بقالنا شهرين عاملين زي اللاجئين .. ساكنين فصول مدرسة.. وأهل البلد كل شويه ييجوا يعطفوا علينا بالأكل والعيش .. إلهي ما يشوفوا اللي شوفناه ويجعلهم مستورين في بلادهم .. دا حتى العيال البورسعيديه بيشغلوهم يلموا دودة القطن .. عشان يدوهم أجرتهم كل اسبوع .. وطبعا دي مساعدة متدارية .. شوفتي يا ام أمد مصيبتنا واللي حصلنا .. نسيب ياختي بيوتنا ونبقى لاجئين ناخد مساعدة .. انا بصراحة هارجع وعايزه أموت في بورسعيد على فرشتي وادفن في أرض بلدي.

أم أمد تواسيها وقد تحجّرت دموع عينيها:

- والنبي يا اختي هانت ونطحن إسرائيل زي بُن "الحطاب".. اصطبري بس يا حبيبتي كلها كام يوم ويرجّعونا .. ومين سمعك يا حبيبتي ..واحشني بيتي والشارع واللي فيه .. وحشتني أم صاصا وام الكوز رغم لسانها الزفر.

وقت العصاري، وقد تناولت أم الكوز طعام الغذاء من صنع سوكينة زوجة العربي، ليدور بينهما حديث.

أم الكوز: قومي يا سوكا هاتي المحروس روءه .. وصحيه عشان أدلعه شوية ..

بيوحشني على طول الوله ابن المستهوية.

- السمع والطاعة يا أمي الغالية .. أسعد الله عمرك.

-إلهي يقصف عمري بصاروخ ما طايقه كلامك المشقلب ده.

- هاهو روءه حفيدك يا أمي...

- الصلا ع الزين الصلا ع الزين .. واحشني يا روح قلبي من جوه .. نفسي كده على طول تبقى في حضني لا ترضع ولا تنام .. بتضحك لي؟.. يا كماله يا كماله.. بوسه كميله يا وله .. يلا قول ورايا ..نينا نينا نينا ..

- ماماااااا

- يا وله .. بقولك نيناااااا.

- مااااااما

- يخربيت غباوتك طالع لابوك .. يلا يا روءه عشان اجيبلك مصاصة عسلية.

- ساسا .. مااااااما ..

- طب قوم يا ابن المسكوعة روح لامك .. باين عليك هاتطلع واطي زي اللي خلفوك .. يا ميلة بختك يا نورا .. يا رب عوض صبري خير.

يأتي المساء حزينًا كما سابق، أمسيات أنت وطعم المرار فيها عالق في الحلقوم، ما عادت الضحكات التي كانت لا تتوقف في مقهى المعلم البدري، كل

رجل من رواد المقهى ينظر إلى الآخر وعينيه ثابتتين فيهما انكسار وأسئلة تكاد تكون واحدة "هل ما حدث حقيقة؟، وهل من السهل طرد العدو المُحتل والذي أصبح على بعد خطوات من بورسعيد؟ التشكك وحده هو المُغلف بألم الصمت.

أبو صاصا وجَمْع من الرجال، ينتظرون الرجل الذي وعدوه المساعدة بعدما أنقذوه من الضرب المُبرح في سوق الروضة، أتى إليهم حسب الموعد بعد صلاة العشاء، وكدمات اللكمات تاركة أثرها على وجهه الأبيض الشفّاف، وكانت هيئته كلها وقار رغم انهزام روحه وطأطأة رأسه، والتي لا تقوى على الرفع بعدما حدث منه وله وبصوت خافت حزين قال:

الرجل:

- سلامو عليكم يا رجالة .. سامحوني إني سببت لكم حرج في سوق السمك .. والله غصب عني.

أبو صاصا يُطيّب خاطره:

- يا ريس متقولش الكلام ده .. احنا كلنا ممكن نتْلقّى في ولاد حلال يقفوا معانا في شدتنا .. تشرب شاي والّا اجيبلك سحلب.. **(ودون أن يرى أحد وضع له بعض النقود في جيب القميص المزركش المكوي).**

- مالوش لزوم كتر خيركم.

- ياأخي.. احنا بقينا أخواتك وأصحابك .. نتشرف بيك لما تجيلنا أي وقت .. هات شاي يا بيو " صبي القهوه " للريس بتاعنا كلنا.

لازال الرجل وجهه يعلوه حُمرة الخجل، يود في جلسته أن يغوص في أرضية المقهى لهذا الموقف الخليط بين الأسى والخجل، ساد صمت بين الجلوس، ونظر أبو صاصا إلى رأس الرجل المُذل .. ليجدها مالت منكفئة على صدره .. مات الرجل وانقطع النفس الذي ما تحمّل صاحبه أن يعود ليرى مزيدًا من المذلة والهوان .. صرخ أبو صاصا في جميع من بالمقهى علّ أحدًا منهم ينقذه .. وقد فاضت روحه المقهورة إلى بارئها .

انتهت أجازة الصيف الدراسية وانتظمت الدراسة بالمدارس، وكان هذا دافعًا لعودة من هُجِّر إلى المدينة، ليلتحق الأولاد مجددًا بمدارسهم، ومن لم يُقدم على ترك بيته واستقرّ فيها ما شعر لصيف مدينة ساحلية مثل بورسعيد طعمًا ولا بهجة كما ماضيها.

ما خلا حائط من حوائط المدينة، إلا وكُتِب عليه عبارات لعنات للعدو الصهيوني وحتى قادتهم خاصةً وزير الدفاع " موشي ديان "، بل امتدت إلى قادة من وراء إسرائيل خاصة الولايات المتحدة الأمريكية، وبعض الحوائط تحيي الزعيم جمال عبد الناصر وتتمنى له النصر، وتحثه على المضي قدمًا نحو إبادة

العدو الصهيوني، ومنها " أبو خالد يا حبيب بكره هندخل تل أبيب ".

الباعة الجائلون ما عادوا يتغنّون وسلعهم كما كانوا قبل هزيمة الروح، هاهو عم علّام بائع الكيروسين وعاشق أم كلثوم يغني:

- أنا إن قدَّر الإله مماتي .. لا تري الشرق يرفع الرأس بعدي .. وبناة الأهرام في سالف الدهر .. كفوني الكلام عند التحدّي .. (ثم يختفي من الشارع).

بائع آخر ينادي : خَد الجميل يا حلاوة.

بائع ثالث : حلاوه نيفا تعالى دوق.

بائع الفطير الأنيق، يرتدي بالطو أبيض كما الطبيب، وكاب أبيض أيضًا دافعًا أمامه عربة أطفال عليها صندوق زجاجي وينادي "زبدة و جبنة وعجوة ... ياغني يا رب"، وكأن على رأسه الطير.

أم صاصا تستعد لاستقبال حفيد لها من حبيب القلب والروح صاصا، لتتم فرحتها بعد زواجه من يونانية المولد ومصرية الأصل والهوى، " ليزا" التي تتأوه وجعًا.

ليزا : تعبان كتير قوي مامي صاصي .. أنا حاسس موت قريب .. فين صاصي بليز مامي؟

- راح يا حبيبتي يجيب الحكيمة عشان تشوف ولادتك على خير.... اجمدي

ياروحي .. كلنا كنّا كده واحنا بنولد .. نحس إن دي نهايتنا .. إنما في الحقيقة بتبقى بدايتنا .. بمجرد ما نسمع وقوقة النونو وهو بيعيط .. بيروح كل الوجع ونبقى عايزين نشوفه ونلمسه ونرضعه من صدرنا لبن السرسوب .. ونشوف هنسميه إيه .. الواحدة مننا تحس بقيمتها إنها أم .. وبعدين يا حبيبتي لازم تُصلبي نفسك إنتي هاتملي علينا البيت عيال.

- أنا شفت عذاب جامد ماما عشان واحد .. انت عايز ليز تشوف عذاب كتيير .. نو .. نو ماما .. واحد ده كفايه الحمد لله.

- كل الستات بيقولوا كده يا ضنايا وكلها أربع شهور ويحصل الحمل .. وكل مره برضه يقولوا كده وبس وكفايه .. ربنا يا بنتي ينتعك بالسلامه .. ويديني العمر وافكرك.. يلا ست الحكيمة وصلت .. اتفضلي يا حكيمة بلدنا ووش السعد ع الشارع .. يلا يا بطه هاتي " روحية " اشيلها وانتي خدي الميه السخنه معاكي وادخلي معاها .. يلا معاها كمان يا سوكينة .. (وتلتفت نحو صاصا وجدته منهارا يبكي، تتوجه إليه بكل عطف وحنان أمهات الكون وتقول له)...

- فيه إيه يا حبيبي؟ بتعيط ليه يا ضنايا .. هي يعني كانت أول ست تولد !! يابني كلها ساعة وتشيله وتاخده في حضنك.

صرخات ليزا تشتعل متلاحقة، ثم صمت يعقبه صرخات مولود أتى للحياة، وهنا تخرج العمّة بطة، لتحتضن صاصا وتُبشّره بغلام أسموه " ناصر " من قبل

ولادته، آملين في الله أن يكون "ذكرا"، ليملأ الغرفة صراخًا وسط دموع مخلوطة ببسمة شروق الحياه للجدة والعمه والأب والجيران من السيدات اللاتي أتين مع أول صرخة ميلاد ليزا، التي سرعان ما أصبحت واحدة منهن.

فور ميلاد ناصر البكري وليد ليزا وصاصا، وما أن فاقت الأم التي أنجبت زعيم حياتها، نادت على الحبيب صاصا وقالت:

- صاصي حبيبي بليز روح سنترال كلم مامي .. وقولها ليز بخير.. ليز بقت أم ومعاها ولد جميل زي بابا صاصي واسمه ناصر.

صاصا في فرحة عارمة:

- كنت هعمل كده من غير ما تقولى ليزا .. لازم ماما ليز تفرح معانا.

- شكرا كتير صاصي روحي حبيب قلب ليز أبو ناصر هيئ هئ .. ليز تعبان صاصي تعالى في حضني ابقى كويس.

يتعانق الحبيبان بمودة ورحمة زرعهما الله في نفسيهما، وعلى الفور ذهب صاصا لتنفيذ الواجب في السنترال الكبير في حي الإفرنج.

عادت سوكينة بعد أداء الواجب وقت ولادة ليزا، لتبشّر حماتها بتمام الولادة، وأن الأم ليزا وطفلها ناصر بخير.

- ما شاء الله يا أمي.. ولد يشبه القمر مثل ليزا تمامًا.. أدعو الله له أن يكون بارًا بوالديه.

- بارًا والا جوًا .. يلّا يا اختي خدي ابنك اللي طلّع عيني وانتي هناك .. والوله اللي طالع عليه عفريت اسمه مام مام .. قلت الواد جعان روحت سلقت له كام بيضه .. يعيط ويقول بيتا بيتا لأ لأ ..و بيص لي ويصرخ ويقول مام مااااام، النباهة جتلي فوريره وعرفت انه عايزك ومش طايقني .. قطيعه .. على رأي المثل "الجدي يرعى بالنهار على قفا نينته .. ويجي وقت النوم يروح لامه وينسى سِتُه".. يلّا بقي شدي حيلك وخلفى لنا كام جدي عشان الزريبة تكمل هئ هئ هئو.. انا هقوم ألبس واروح ابارك لام صاصا وأرد لها حاجة من جمايلها عليا اللي مغرقاني بيها .. فشر إيلات .. تكوني انتي حضّرتي لنا الغدا ومجهزة الطبلية .. انا هارجع هفتانه وأني ما اتحملش الجوع .. ولما أكون جعانه بتعمى ومعرفش ابويا من نينتي.

صفارة الإنذار المتقطّعة تُعلن عن غارة جوية، وعلى الجميع الاستعداد بتنفيذ تعليمات الدفاع المدني المتأهب بالشارع، ليحل الظلام بعد إطفاء أنوار البيوت والشارع، وما عادت غريبة على مسامع وأبصار أهل المدينة العيش في هذه الأجواء التي كادوا أن يعيشونها يومياً.

الفصل الثالث

العام الميلادي الجديد يهلّ والجميع في الهم والغم سواء، عاداتهم في مثل هذا اليوم حتى العام الفائت إلقاء كل أنواع الزجاج من الترسينات "البلكونات"، تعقُبها صيحات وكأنهم تخلّصوا من الأشرار الذين كانوا قابعين طوال العام داخل القنينات والأطباق، تلك عادة مُكتسبة يقلدون فيها الفرِنْجة الذين كانوا يعملون في مدينتهم أو محتلين لها.

أنه يوم الإثنين، بداية عام ألف وتسعمائة ثمانية وستون، وحال النفوس تبدّلت بالكسيرة والمشنوقة، فكيف للمكسور أن يَكسر والمهزوم أن يَهزم، والأصعب أنه يتزامن مع وقفة عيد الفطر المبارك، يعني آخر يوم رمضاني والعيد توافق مع اليوم الثاني من العام الميلادي الجديد ٦٨.

برغم الحزن العام والأيام متّشحة بالسواد، شعر الجميع بغصّة، تلاشت مع أطفالهم والنظرة إلى عيونهم والبراءة فيها، التي أدت إلى وجوب إدخال البهجة في قلوب خضراء هذا العام كما الأعوام السابقة، لذا تمّ تجهيز كل ما يخُص العيد

من تزيين وملابس وغيرها، فالعيد يبتهج عند زيارته لمدينة البهجة والجمال، يشعر معها بمزاج خاص وأهازيج لها طعم لذيذ شكلًا وموضوعًا، ومعاني تجعله لا يحب الانتهاء، ويظل أهل المدينة متخذينه توقيت وميعاد، فيقولون "أشوفك بعد العيد بيومين" أو "فرحي بعد العيد بأسبوع"، أَبَعْد هذا الحب يَسْعد بالرحيل وهو الأصيل !!؟

على كل ناصية من نواصي شوارع المدينة تقف عربة يجرها حصان، مزركشة بالورق الشفّاف المُلَون وأحيانًا الزهور، وضع فوقها دِكتين ع الجانبين لجلوس الأطفال، وجوانب خشبية تحميهم من السقوط، ويوضع سُلم خشبي مكون من أربعة درجات لصعود الأطفال عليه حتى الوصول لأعلى العربة، وتسمى هذه العربة التي يتم تجهيزها " البكَّاش"، تُستخدم فقط للذهاب بالأطفال المُحتفلين بالعيد إلى مكان احتفالهم المُحدد، والذي فيه شتى الألعاب من أرجوحات ودواريات وخلافه، مع شوادر للأراجوز وألعاب السيرك والساحر وغيرها.

يتحرك البكّاش محملًا بالأطفال المُرتدين ملابسهم الجديدة والكل سواسية، وقد يكون الزي للجميع آخر النهار طقم آخر سواء بدلة كاملة أو بلوفر وبنطلون كلًا بمقدرته.

بالطبع لن يتحرك البكَّاش من موقفه على أُورنة "ناصية" الشارع، إلا لمّا العيال تبقى فوق بعض، وصاحبه يلم أكبر مبلغ ممكن في الرحلة.

يا ابو علي يا صياد .. اصطاد وادني .. يا صياد .. واطرح مناديلي .. يا صياد تطلعلي سمكه .... يا صياد ... اللي يحب النبي يقول هيبيي .. هيبيي وكمان هيبيي .. هيبيي ويا ابوعلي .. يا صياد...

الأطفال شافوا بكّاش آخر ماشي جنبهم متحدي فرحتهم ..على مين ده!!؟ وتشتعل المنافسة ويقولوا:

البكّاش أهو أهو .. بتاع العيال أهو أهو (قال يعني همّا رجاله،بس الفرحه حلوه مفيش كلام).

وصل "البكاش"، حارة العيد زحمة مووت... لكن يدخل صبيان شقيقان برغم الزحام:

- تعالى نخش الساحر.
- لا يا خويا عايز اشوف "بريللو" وهو بيركب العجلة ع السلك .. يجنن...
- طب أقولك .. نركب مراجيح.
- لا يا حبيبي الساقية القلابة أحسن عشان خايف تتقلب بيا وأموت.
- عشان انت خواف .. اركب الدوارية وانا هلعب نيشان بالبندقية .. وافرقع كل البومب اللي الراجل حاطه ع السلك.
- وربنا انت خراط لو ابوك جمال عبد الناصر مش هاتقدر تفرقع واحدة.
- ما تغظنيش يا أمح لاقول لامك اما نرجع تديك حتة دين علقة.

- فاكر لما عضتك لما ضربتني وانا صغير؟ .. يلا بقي نشتري طبلة وزمارة...

- يا عبيط خليها واحنا مروحين احسن تتكسر.

- طب ناكل كشري ؟

- لأه .. أمك قالتلي ارجعوا بدري عشان هناكل سوا سردين مملح.

- بس انا ما بحبوش... حادئ بيحرقلي بوقي.

- خلاص ياعم انت هاتعيط .. تعالي ناكل بكلويز ومش هاقول لامك.

- بس نفسي في التقاطيع.. بصراحه عايز سانجوتش.

- ماشي ماشي ناكل الأول بليله ونجيب بتعريفه لب وفول.

- يابني ما عندنا ترمس وبليله في البيت.

- طب يعني يا أمح هتأكلني على مزاجك؟

- وربنا اقول لامك برضك انا مجنون.

- طب روح يا وله وغور من وشي .. انا غلطان اللي جيت معاك أصلن دانت عيل بايخ.

- قولي بقى انت معاك كام على كده؟...

- معايا شلم من ابويا وقرش من نينا ... وامي استهبلت وما عطتنيش... بس لما ارجع مش هسيبها .. هقعد أزن لغاية ما تديني قرش ونص.

- طب يلا بقى نروح من شارع الأمين نتصور عند المصوراتي اللي عند الأورنة

امشي بسرعة بقت عشان الدنيا زحمة .. ايه مش هتتصور معايا؟

- لا يا أخويا .. هتصور ببدلة الظابط بتاعت عمي اللي أُمي أيفتها عليا .. وحطت نجمتين.

ما أجملك عيد يا عيد في بلد فيها القلوب الحلوة دي، لوعى تسيبنا يا حبيبنا.

يجلس شاب ثلاثيني بدا عليه الوقار، مُهنْدم على مقهى المعلم البدري، يضحك تارة ويبكي بمرارة تارة أخرى، بعض مريدي المقهى يعرفونه وينادونه "بـالأستاذ ياسين" مُدرس اللغة العربية وشاعر.

عاد منذ شهور قليلة من سيناء بعد قرار الانسحاب المُخزي، تاه في دروب الصحراء أيام، مات معظم زملائه من الجنود إما عطشًا أو وجوعًا، وفي الحالتين يأتي القهر قبل الجوع والعطش، وجده بعض البدو، اعتنوا به وهربوا به إلى الضفة الغربية للقناة سباحة، أصابته لوثة العقل لِما رأى، تجده يضحك ويبكي بدون فاصل مشاعر ولا مواقف، اللهم ما يدور برأسه وقت البكاء والضحك، طلب من صبي المقهى كوب ماء، وأخذ يُلقي شعره بشكل ارتجالي ومشاعر حبيسة الصدر المكلوم:

والشمس تاهت جوه حبَّات الرمل..

إيد الجاروف انكسرت .. ما استحملتش حتى شهر

حفرت كتير قابلِت وشافِت ذُل وقهر

فيها إيه لو كانوا زرعوها زتون وحَب

آه آه يا ولاد ال .....

ثم أخذ يبكي بصوت مسموع، ونادى على صبي المقهى يقول:

انت يا زفت .. هاتلي واحد شاي وكتّر السكر ... (وأخذ يبتسم ل اللامرأي .. ثم يُقهقه له ويشاور بيده بعلامة النصر).

عادت الأيام بملل ... انتظار تَغيُّر الأحوال ... وطالت... يبدو أن الأمل يُصاب بوهن المُنتظرين، من هنا تمضي الأيام بثِقَلها وكأنَّ اليوم فيها دهر.

أدّى المُصلون صلاة فجرهم بمسجد الشارع، وعواصف شهر أمشير تنتظرهم، وأيضًا سيارة للشرطة، ما إن خرج الجميع وخلفهم الشيخ طه إمامهم بصحبة العربي الكوز كالعاده، حتى هجم أفراد الشرطة عليهما وألقتهما في السيارة بشكل مُهين، مع مقاومة العربي والتي انتهت بضربة قوية فوق أم رأسه، والشيخ طه لا يملك إلا اللسان وهيبة زي الأزهر، بنكزة أحدهم بُلع اللسان وسقطت الهيبة.

بعض الرجال ممن رأوا ما حدث وبهذا العنف، ظن أن هناك جُرم ارتكبوه وما عليهم إلا السكوت، وانطلقت السيارة إلى ما قرر قائد القوة المُكلَّفة بما تم.

نادي صاصا على نورا أم الكوز، يُبلغها خبر القبض على ولدها والشيخ طه من تحت الترسينا.

- مش عارف والله يا خالتي السبب.

- جاتهم داء السكتة في قلوبهم .. وربنا لو كنت واقفه ساعتها ما كنت عتقتهم بالشلاليت والبواني .. ما يكونش الشيخ طه بيبيع حشيش؟ حاكمن يطلع منه العجب .. ثواني البس وانزلك .. يا حبيبي يا عربي .. طب مين هيفتح المحل عشان يعطي الناس العجل " الدراجات" اللي بايت فيها بتاع صحابه؟

- طب هاتي المفاتيح .. واني هشوف حد يقف في المحل لغاية ما العربي يرجع.. مستنيكي يا خالتي .. على مهلك...

أَدْخلوا الشيخ طه والعربي الكوز قسم الشرطة للتحقيق، كلًا منهما في غرفة، وبدأ التحقيق مع الشيخ "س و ج "، ولمَّا أراد المراوغة والحذلقة، ما هى إلا ضربة كف على قفاه ظل يردد بعدها في كل جملة اسم الزعيم ناصر والدعاء له بالنصر المبين، وأن يُطيل الله عمره حتى تحرير الأرض ورفع راية مصر

والأمة العربية، أفهمهم أيضًا أن رسالتهم وصلت وعليه التنفيذ من فوق المنبر، أما العربي أمره سهل، بعدما أفاق أبلغوه أنه مطلوب تجنيده بالجيش وأنه سوف يتم تسليمه معسكر التجنيد بالتل الكبير.

أشرقت شمس الله في يوم شتوي مُمْطر، وصُبّت الأمطار بعنف على المدينة لتزداد جمالًا، وأسرع الجميع تحت البواكي حتى تخف حدتها أو تتوقف.

جلس الشاعر المهزوم على مقهى الشارع، وأخذ يتأمل سقوط المطر والحزن يَمْلَؤه، وهو يتذكر زميل له .. مات عطشًا عندما تاهوا في صحراء سيناء، وأخذ يلقي كلمات الشعر مملوءة بجفاف الحلق بصوت مشنوق...

الشاعر:

عملوها الديابه ويا حبّة غلابة ...

فرَّحوا الغجر.. دقوا دفوف ويَّا الربابة...

الخوف جرى ويّاهم .. مقدروش يسيبوه يا ساده...

فيه إيه لو زرعوها مصانع وحَب؟

آه منكم يا ولاد ستين ....

قطع اندماجه " البيو" صبي القهوة، وقد أحضر له كوب من الشاي مُحلّى بخمسة ملاعق من السكر، وأخذ يداعبه قائلًا:

- ما تسمّعنا حاجة يا أستاذ عن ولاد الكلب.

- حاضر يا بيو .. هو انت عارف مين هما ولاد الكلب؟

- طبعا يا أستاذ اللي ما يتسموش.. اللي خانوا البلد وخانوا جمال عبد الناصر.

- هيئ هيئ مثقف فعلًا يا بيو.. انا هسمّعك لغاية ما تهوهو وتهز ديلك.

الشمس بانت بعينيها .. اللي طلعت لونها بيضا

فين حلاوتِك وحَمَارِك وبِذْرتك السوده

الفران سادت وهاجت .. والتُهمة راحت في البياده

فيها إيه لو زرعوها قرع و حَب؟

كفاية ضرب يا ولاد ال....

دخلت أم الكوز بجرأة الأم المحبة لولدها قسم الشرطة، غير مبالية بالنداء عليها من شرطي الحراسة.

- رايحه فين يا ست؟ خدي بس اقولك.

- يا بني سبني... داخلة للشاويش اشوف أخدوا ابني ليه؟ ده حتي يتيم وفي حاله

ومالوش في حاجة .. هو عشان احنا غلابة نتمرمط .. و ديني ما انا خارجة من هنا إلا وابني في إيدي .. (صراخ وعويل وبكاء حار).. هاتولي العربي يا ناس حرام عليكم .. بلاش افترا .. لو حكمت والنعمة الشريفة أروح لجمال عبد الناصر أخليه يسجنكم .. هاتولي ابني بدل ما اصور لكم قتيل هنا.. طب خدوا الشيخ طه وسيبوا ابني.

يخرج من مكتبه قائد قسم الشرطة، ويهدئ من روعها ويقول بحزم:

- اهدي يا ست بلاش زعيق هنا .. ابنك مفيش عليه حاجه مطلوب للجيش وهنرحله .. أما الشيخ طه هيروح دلوقتي.

بحسرة ترد عليه:

- جيش ايه يا عم؟ دا هو اللي بيصرف عليا.. وانا وحدانيه وأبوه شهيد مات في ستة وخمسين .. هو يعني العربي اللي هيجيب النصر للبلد؟

- بلاش كلام كتير يا ست انتي .. روحي هاتيله شنطة وعدة حلاقه وشوية لوازم وهيجيلك بعد أسبوع أجازة " التأييف".

يظهر الشيخ طه أمام أم الكوز عندما سمع صوتها محاولًا إخفاء ما حدث له وقال:

- فيكي الخير والله يا ست أم روءه .. أهو كده عرفت إن ورايا رجالة .. سمعت جوه أن العربي سوف يؤخَذ للتجنيد ليصير بطلًا من أبطال قواتنا المسلحة.. درع

الوطن بقيادة زعيمنا سيادة الرئيس جمال عبد الناصر حفظه الله ورعاه.

أم الكوز تعلم أنه لا يطيق للرئيس سيرة، فنظرت إليه تُمصمص شفتيها وتقول:

- يا جمالك يا شيخ .. إيه يا اخويا الكلام الكبير دوت اللي على سهوه .. ما تقول بقى ما محبه الا بعد عداوة.

يريد الشيخ أن يُخرسها، فقال وهو يتحرك خارج القسم بعصاه وبصوت عالي:

- يلّا يا ست نورا نروح نجيب للعربي شوية حاجات عشان ياخدها معاه الجيش.. بس انتي تجيبيها له هنا.. عشان انا هبقى مشغول في المسجد مش هقدر اجي معاكي تاني هنا.. ربنا ما يجعلنا من رواد هذا المكان في كل عصر وأوان.

كل من عَلِمَ بالقبض على الشيخ والعربي من أهل الشارع، أتى ليجلس فوق الرصيف المُقابل منتظرًا للاطمئنان عليهما، ومنهم من اقترح الذهاب لمكتب محامي يتولى الدفاع عنهما، قام الجميع بتهنئة الشيخ طه بسلامة العفو عنه، ولاحظوا عليه الانكسار والوهن.

يتقدم صاصا سائلًا:

- مالك يا شيخنا .. شايفك مش ولابد .. هما عملوا فيك حاجه جوه؟!

الشيخ منتفضًا مستنكرًا وبصوت منخفض:

- وهل يجرؤ أيهم المساس بشيخكم بسوء!!.. لقد لقنتهم درسًا في كيفية معاملة

شيوخ الأزهر الشريف .. لقد واجهتهم كما القرعوش والحفص والفرهود .. فلمَّا وجدوني بدوت كما الغنابس والضغيم وأسامة .. استفاقوا واستقاموا .. وهنا بدا كلامهم لي طيبًا ودودًا فاق معه معنى الاحترام.

الدوح ساخرًا:

- مين بقي الغنابس والجرهود دول بقي ياشيخ ؟!

- يا دوح كلها من أسماء الأسد يا جاهل .. فقد كنت ندا لهم ليث والقرضام.

أم الكوز:

طب يلا يا سبع البرمبة.. خلي بالك قدامك بلاعة احسن تقع فيها زي اللي زقك فيها العربي هوْ هوْ هوْ.

****

الفصل الرابع

عيد الربيع أو شم النسيم كما يحبون تسميته أهل المدينة، يأتي عليهم هذا العام ومشاعر الحزن تُغطيهم من الرأس حتى القدمين، منذ النكسة ومشاعر الفرح قد فرَّت منهم، هم يعيشون حالة الطوارئ شبه يومية، لازالت صفارات إنذار الغارات الجويه من العدو الإسرائيلي تنعق ليل ونهار دون تحديد زمني لها.

طقوس أهل المدينة في هذا اليوم يتفرّدوا بها عن سائر مُدن الجمهورية العربية المتحدة، هذا العام تحديدًا، ظهر لهم عدو جديد يختلف عن اللورد (الألمبي)، الذي كانوا يصنعون له دميته ويلقونها في النار تشفيًا، العدو هذا العام هو وزير الدفاع الإسرائيلي "موشي ديان"، فهو الألمبي اليوم، وقد حددوا ملامحه برسم الوجه ووضع عصابة سوداء على عينه اليسرى المفقودة والمربوطة، والعصابة مربوطة بشريط أسود بالرأس.

ازدانت المدينة عن بَكْرة أبيها بالدمي المصنوعة من القماش (الألمبي)، جميع أهل الشارع شاركوا بهمة ونشاط منذ شهر مضى في صناعته حتى يخرج بالشكل الأفضل الذي سوف يفتخرون بتميزهم أمام سكان الشوارع المجاورة.

من شارك بقميص وآخر بنطلون، وبعض الأمهات بالحياكة، حتى الأطفال قاموا بجمع قصاقيص القماش من محل الترزى أو قش الأرز من سوق الخضار، ليقوم آخرون بالحشو الداخلي مع رسم ملامح الوجه، ثم رفع الألمبي بالحبال بين بلكونتين متقابلتين بعرض الشارع ليتوسط منتصف الشارع، والجميع يتباهى بمشاركته منذ البداية وحتى عرضه، إضافة لذلك بعض الدمى الصغيرة صنعتها بعض الأمهات حتى يُسعدن أطفالهن، ووضعتها لهم في التراسينة (البلكونة).

لهذا الطقس تاريخ وأصل، يعود للجالية اليونانية للطائفة الإنجيلية منهم والذين كانوا يعملون بقناة السويس، حيث يعتقدون أن "يهوذا" أوشى بالمسيح عليه السلام حتى تم صلبه، ويتزامن لديهم تاريخ المُعتقد هذا مع عيد الربيع، لذلك كانوا يصنعون دُمية من القماش يحشونها بالقش على هيئة يهوذا ويشعلون نار ويلقون الدُمية فيها.

أخذ البورسعيديون فكرة حرق كل مستبد ومتطرف وظالم أو معتدٍ أثيم ينفردوا بها، وكانت بدايتهم مع اللورد " الألمبي" الانجليزي الظالم.

فرحة الشارع بهذا الحدث السنوي المنتظر من الجميع، تعلو الوجوه البسمة لتغطي ألم النفس وتخفف عنها وخزتها، الكل ينتظر النهاية السعيدة بالحرق لمن صنعوه بأيديهم، رغم تنبيهات الشرطة والمطافي ورجال الدفاع المدني.

الشباب يطمئن على مخزون مواد الحريق من كاوتش وأقفاص الجريد وخلافه، وقد سهروا ليالي في حراسة هذا المخزون الاستراتيجي، خوفًا من سطو شباب الشوارع المجاورة عليه أو مصادرته من رجال الشرطة.

أطفال الشارع ينتشرون تملؤهم السعادة، يرتدون البيجامات المصنوعة من أقمشة المحلة الكبرى، والفتيات أيضًا ترتدين فساتين من قماش (باتيستا) المنقوش بالورد مع كولة ساده حول الرقبة، كل هذه الثياب مصنوعة بواسطة أم سوزان خياطة الحي، وحتى لا يضيع وقت الفرحة من الأطفال، انقسموا مجموعات تلقائيه حسب الميول، ما بين لعبة " السبع طوبات" و " الأولى" و" الاستغماية" وألعاب كثيرة معروفة، تتميز بالبساطة وبدون إمكانيات تُذكر.

تمتاز مدينة بورسعيد بشوارعها المنتظمة فيها المنازل على جانبي الشارع، أغلبها بحي العرب ترتفع ما بين ثلاثة أدوار وأربعة على الأكثر، تجمع في البناء ما بين الطوب الحجري والأخشاب، والبروزات (الترسينات) مقامة على أعمدة متينة من الخشب، ومصنوعة من الخشب أيضًا بشكل جمالي متميز ومتناسق مع النوافذ.

السيدات في المنازل يَقُدن ملحمة أخرى غاية الأهمية، لتكتمل فرحة طقوس هذا اليوم البهيج من صناعة "المنجوٗنة" وتلوين البيض و"الشكلّمة"، وتجهيز الخس والبصل الأخضر والملانة وخلافه لزوم وجبة الفسيخ المتينة في الغد.

أم صاصا تسمع صوت بائع ينادي على البرغوت، تخرج له في التراسينة وتطلب منه كمية كبيرة من البرغوت (الجمبري الصغير)، وتوصيه أن يغرف لها من فوق الوش لأن اللي تحت بيبقى كله رفيع زي الدود، وتنادي أم صاصا على ابنتها بطة التي حضرت لها لتشاركها احتفالية شم النسيم.

- أديني جبت البرغوت عشان نعمل كفتة وكبيبة تسند مع الفسيخ بكرة.. والوله ابنك " إنف " وما بيحبش الفسيخ .. يلا انتي انقعي الرز .. وخرّطي البصل وابعتي الوله الرزه يجيب لنا الحِباش م الراجل اللي على " أورنة الشارع".. ويقوله يكتّر الشبت .. واندهي يا بطة على أم عبود وشوكار اللي في البدروم وأم النُصه والبت لوزه ييجوا يقشّروا معايا .. يلّا يا بت شهلي عشان نخلص قبل ما ابوكي ييجي والدق بالهون مش هيخليه ينام العصر ....

انتصف النهار، والعربي العترة ينصب قوائم المرمى الأربعة على جانبي الشارع، ويخطط الملعب بالطباشير استعدادًا لإقامة مباراة كرة القدم (الكياس)

وهي كرة مطاطية تشبه كرة التنس، معظم اللاعبين يلعبونها حُفاة القدمين وهذا طقس سنوي مستديم في هذا اليوم.

ينادي العربي العِترة على الأطفال قاطعًا شهوة اندماجهم في لعباتهم قائلًا:

- يلّا يا عيال ابعدوا عشان فيه ماتش كورة.

وأبلغهم مفاجأة سارة بأن اللاعب المشهور " السنجأ "، سوف يلعب مع الفريق المنافس.

ويقوم العربي أيضا بإيعاد الباعة الجائلين، والذين اعتادوا المرور بالشارع، منهم من يبيع الفطير وينادي... (زبدة وجبنة وعجوة ... يا غني يارب)، وثاني ينادي على الخبز الطازج ... بيتي وسخن يا عيش، والثالث عم الصيّاد بائع الحلاوة النيفة، وكذلك صاحب الميعاد المقدس بائع الزبادي ينادي... زباااادي.... ويرد على نفسه ... نشطة ...

نجح العربي في إيعاد كل هؤلاء مع بائع البصل الأخضر والخس وغداً يومهما.

اصطفّ شباب ورجال وأطفال الشارع على الجانبين، ليشاهدوا مباراة ممتعة، والتصفيق والصفافير مع كل لعبة حلوة، ومراوغة من الحرّيف "السنجأ".

الصبي الرزه ذو الاثني عشرَ عامًا ينادي على جدته أم صاصا من الشارع...

- نينه ... نينه .... نينه

ترد عليه جدته من التراسينة:

فيه إيه يا وله .. ما تبلع ريقك..عايز إيه؟

الرزه:

- اسرجيلي النور يا نينا .. الدنيا عتْمة خِرْمِس ع السلم .. وفيه قطة سودا واقفة ع البسطة بتبرّقلي...

- نور إيه دلوقتي واحنا في عِزْ النهار .. انت خِيخَة ولسان ع الفاضي .. وبعدين ما تطلعش ... محدش فاضيلك.

الرزه بانفعال ومَسْكنة:

- طب انا جعان بقت يا باي .. طب حَنيلي قِشْفة بجبنة ونزليها في "السبت"...

- يا وله إيديا متلغمطة زفاره .. وانا كنت عاطيه لك قرش روح هات لك شقتين من عند شلبي .. إيّاك تتده عليّا تاني يا حمار.

مشى الرزه يهذي ويبرطم من جبروت جدته التي لم تنس أنها أعطته قرش بحاله قبل ما ينزل الشارع...

يتجمع رجال وشباب الشارع، لتوزيع الأدوار فيما بينهم، يقودهم الرجل المُحّنك " أبو السعيد البيو"، كما اعتاد كل عام لإخراج احتفالية الليلة تليق باسم الشارع بتاعهم، متفوقين على الشوارع المجاورة، بحيث تكون لديهم أكبر وليعة "حريقة " مع أحسن ألمبي، والمسؤول عن زفة الألمبي هو العربي العِترة، لطول

قامته وقوامه الرياضي، المصاحب له على الطبلة في الزفة فنان الإيقاع ابن الشارع "موحه"، وتبدأ الزفة ويحمل "العترة" الألمبي فاتحًا رجليه ووضعهما فوق كتفيه، وممسكًا بيديه ويشدو ومن خلفه الجميع:

- يا ألمبي

الجميع: يا ابن ألمبوحه

- ومراتك؟

- حلوه وشرشوحة

- يا تربة يا ام بابين

- وديتي الألمبي فين؟

وهكذا يتم الترديد على نغمة طبلة الفنان "موحة"، ويجوبون الشارع وبعض الشوارع القريبة، بينما السيدات والفتيات يُصَفِقن ويضْحكن من قلوبهن، ولا مانع من إطلاق زغرودة طويلة من البت النون (دلع أمينة)، على الجانب الآخر الشباب المسؤول عن الوقود من كاوتش وأقفاص جريد النخيل والأخشاب، يُكَومونها في منتصف الشارع، رصة محترفين اعتادوا عليها، لتكون مرتفعة قدر إمكانهم حتى تظهر حريقة ما حصلتش تُمتِّع الناظرين، الأطفال مستعدون، كل منهم في جيبه ثلاث أو أربع حبات من البصل، ليضعوها داخلها وقت هدوء النار لتنضج داخلها، ويأكلون البصل المشوي بلذة لن تتكرر إلا بعد عام.....

عادت زفة الألمبي إلى الشارع، وعندها تمّ إشعال النار، وطاف الجميع مع الألمبي حول النار التي تستعر بإلقاء المزيد من البنزين، ويمسك الشباب كلًا منهم بطرف من الألمبي، ولكل منهم في نيته ظالم أو فاسد أو حتى زعيم، لابد من إلقائهم جميعًا في نار الشارع وبئس المصير.

بعد متابعة أم صاصا وابنتها بطة هذا الحدث الجلل الذي تتميز به مدينتهم الغراء عن سائر مدن الدنيا، تذكرت أن حفيدها لازال بالشارع، أخذت تنادي عليه... يا وله يا رزه.. اطلع بقى الدنيا ليلت.

الرزه بتناحه: لسه بدري يا نينا .. خليني شوية .. السمسمية جايه دلوقتي.

أم صاصا: اطلع دلوقتي أحسن لا سمسميه .. يلا انا سرجت لك نور السلم .. ويمكن شوية تيجي غارات من ولاد الكلب الظلمة.. اللي مش عايزنا نفرح.

تأتي فرقة السمسمية للشارع، ليغني أعضاءها بالتناوب مع قائدهم "حسن العشري"، أغاني في حب مدينتهم، بل والعاطفي بلون موج بحرهم الساكت حزنًا، وما نسوا أغاني رفع الروح المعنوية للجيش والشعب كأغنية (كانت إيلات رايحه وجايه ... في مياهنا المصرية ... مبروك يا جمال .. مبروك يا جمال).

حالة المدينة الاقتصادية تزداد سوءاً، فالبحر وقناة السويس هما شريانا الخير ورغد العيش منهما، فما عادت مراكب الصيد تجوب مياه حدودنا الإقليمية ولا تتخطاها كما كان يحدث قبل وجود العدو الإسرائيلي على مرمى البصر، والقناة تم إغلاقها أيضًا، ومع احتلال سيناء فقدت ثروات بحيرة البردويل التي كانت تدر بالخيرات على المدينة من أسماك فاخرة دنيس و بوري و قاروص وغيرهم.

أم الكوز بعد التحاق ولدها العربي بالجيش، عليها أن تكافح لرعاية أسرة ولدها زوجته وابنيهما، لذا قررت منذ ترحيل ولدها ألّا يُغلق محل الدراجات، وترعاه بمساعدة شباب الشارع ورجاله على استمراره، خاصة "صاصا" الذي كفاها عن الجميع، ولكنها تأبى أن يُقدم لها هذا العمل دون مقابل.

- ينفع كده يا صاصا يابني ... شقيان معايا طول اليوم وماتخدش مليم احمر تدخله على بيتك ... والنعمة حرام كده.

- يا خالتي انتي زي أمي وحقك عليا أخدمك... ولا أبص في "صُلدي"منك .. دا حتى يبقى عيب عليا ... دا ابقى راجل ناقص وماعنديش ريحة الدم.

- بعد الشر عليك يا ضنايا ... اسم النبي حارسك طول عمرك رجوله... طب اسمع بقت ... انا جايبه شوية حاجات لابنك " ناصر" ربنا يحميه... وحاجات بسيطه لأمه ست "ليزا" قمرة الشارع ...تاخذهم تديهم لهم .. ولو فتحت بُقك

بكلمة معنتش تعتب المحل .. وهكون زعلانة منك العمر كله...

- هئ هئ هئ بتطرديني وتفصليني من الشغل يا خالتي؟ والنعمة ما انا سايب الشغل وهاشتكيكي في مكتب العمل .. وأقولهم خالتي فصلتني ياحكومة.. بس هسامحك عشان قلبك الأبيض وهاخد الحاجة .. بس آخر مرة تعمليها .. يلا بقى عايزين نشتغل .. ناوليني "الزردية" مش عايزين دلع.

- ربنا يجبر بخاطرك يا صاصا يابن روحية ... ويخليلك ابنك ناصر ويبقى رئيس جمهورية.

العربي الكوز أصبح جندي مُجنّد، أدى فترة التدريب وتم ترحيله إلى كتيبة بالدفرسوار، حين وصوله للكتيبة تم استقباله ومن معه استقبال عنيف، ليصل لحد الإهانة حتى يشتد عودهم ويقوى، ليعتادوا على إطاعة الأوامر العسكرية دون نقاش، لدرجة وقوفهم بالملابس الداخلية بعد منتصف الليل في صقيع الصحرا، يرفع كلا منهم " المِخْلة " مملوءة بالمهمات الخاصة به لأعلى ويداه مفتوحتان دون سماع النفس منه وحتى شروق الشمس، يذهب بعدها كل جندي يرتدي ملابسه ليحضر طابور الصباح، والانضباط العسكري يسود كل حركة وسكنة دون تأفُف وإلّا .. من نصيبه التكدير من خلال حركات رياضية موجعة، الشتائم الميري حفظوها أثناء التدريب مثل "بعكوك، نمره، مخلة، وغيرها ليدخل العربي

الخيمة متعبًا ويقول للجنود زملائه:

- واضح ان أيامنا هنا طين .. مفيش رحمة يا جدع .. حتة شاويش ما يسويش ميه فضة يأمر وينهي ويجعّر بصوته على الفاضية والمليانة (وأخذ يقلد شاويش السرية بصوت مرتفع)....

- سرية صفا.. انتباه .. لليمين دُر.. للشمال دُر ..خطوة تنظيم .. دُر ..حد.. هاب ..حد ..هاب.. للخلف دُر .. سريعا مااارش .. انت يا عسكري يا تُحفة ماشي على قشر بيض.. مِد الخطوة شوية يا بعكوك انت وهو.

بينما يزيد العربي من السخرية بصوت الشاويش، الذي يدخل الخيمة عليهم متسلّلا ويقول بصوت عالي جدًا وعصبي:

- ثاااابت .. دوّر مكتب ياعسكري العربي .. هوريك الميري بجد شكله ايه.. وأخليك تتوب عن المسخرة اللي بتعملها يا بعكوك .. فاكر نفسك في جيش لواحظ؟

- يا أومباشه ما عملتش حاجة.

- أومباشه يا متحف؟! اتعميت خلاص؟ مش شايف التلات شرايط يا بجم؟!...

- تمام يا شاويش .. شفتهم اصل نظرى ضعيف.

- وكمان بتفكه يا مخلة؟! دانتا جيشك لسه في قعر المخلة .. ودِيني.. اعلّمك ازاي تبقى عسكري منضبط .. يلّا ستة استعد.

- خلاص بقى يا شاوشنا يا سكرة .. حصل خير وحياة ابوك.. عديها ورحمة امك الغالية.. دا انا لسه باقول للعساكر زمايلي انك رجولة وصول راضع من أمه.

أخذ الشاويش يصرخ ويقول: إيه يا عسكري يا مُنْحل الكلام الملكي الغريب ده؟! يلّا دوّرعلى مكتب القائد .. ومش هسيبك الا وانت في البعكوكه تتحبس اسبوع تتربى فيه.

العربي متذللًا:

- طب انت يرضيك يا شاويش يا جامد.. دنا اخوك الصغنن .. ترضى يتعمل كده في اخوك؟...

الشاويش منفعلًا:

- اثبت يا عسكري .. اسمها حضرة الشاويش أو يا فندم.

- حاضر يا باشا .. خلاص بقى سماح .. سماح يا بيه .. سماح يا باشا .. سماح يا فندي (ودخل عليه يُقَّبله من وجنتيه).

- طب يلا ارجع خيمتك وما تقولش على اللي حصل بيننا دلوقتي .. عسكري طُلبه صحيح .. يلّا يا عسكري سريعًا مارش، اجري يا عسكري...

بفرحه يجري العربي ويقول:

والمصحف انت شاويش حلاوة نيفا وانا باحبك زي الوله الكوز اللي في شارعنا.

يدخل العربي الكوز الخيمة ويسأله جندي زميله:عمل الشاويش فيك ايه يا عربي؟

- يقدر يعمل حاجة .. دانا كنت شرحته .. دانا بورسعيدى اصيل يا بني (وأخذ يرقص ويغني أغنية السمسمية).

لحظة راحة صاصا وقت العصاري من عمله مع أم الكوز بالمحل، يتوجه لمنزل أمه حيث تقيم زوجته مع أبويه وطفله، يدخل منشرحًا على زوجته بغرفتهم وبعد تحية أمه ليقول:

- ليز حبيبي وحشاني .. ازيك وازي الوله ناصر الجميل اللي شبه أمه القمر.

- انا بخير صاصي حبيبي .. بلاش صوت عالي بليز عشان ناصر نايم.

- مالك ليزا؟ مزاجك مش مظبوط .. مش عوايدك .. فين بسمة ليزا الحلوة اللي متعود عليها؟.... (أخذت دموع ليزا تنساب بغزارة وألم مكتوم).

- الله الله فيه ايه حبيبتي؟ .. انا سايبك كويسه .. حد زعلك؟

- مفيش حاجة حبيبي .. يلا قوم صاصي اجهزلك غدا.

- وربنا ما ادوق حاجة في بوقي إلا ما اعرف واطمن عليكي .. يا ليزا انتي حبيبة قلبي وروحي وكل دنيتي .. وحياة ابننا ناصر تقولي .. يلا بقى.. لو انا غالى عندك قوليلي.

- بصراحه صاصي.. وضعك ووضع بلد هنا مش كويس .. انا حزين عشانك مفيش عمل.. وكمان بابي صاصي مفيش عمل .. وانا معايا فلوس كتير مش عارف تروح فين .. وكلمت ماما صاصي كتير عشان موضوع ده .. قال وهو

غضبان أوعي تتكلم تاني في الموضوع .. انا محتار صاصي اعمل ايه معاكم.. عندك حل حبيبي؟.. فيه حل انا هنا معاكم .. مفيش حل نرجع يونان انا وانت وناصر نعيش هناك مع مامي .. بليز صاصي انت تحب ليز خلي ليز مرتاح مش حيران .. انا تعبان قوي صاصي ..(ثم أخذت تبكي بحرقة وتحضنه بقوه).

- عشان خاطر ربنا كفايه عياط ..انا كمان باعيط معاكي "صوت مخنوق" كفايه حبيبتي .. كل حاجه ليها حل .. هاقعد مع ابويا وامي ونشوف هنعمل ايه.. يلا يا روح صاصي قومي نتغدا يا قلب وعقل صاصي .. يلا امسحي دموعك عشان محدش ياخد باله .. وهاتى بوسه ع الطاير تروقك هئ هئ.

يأتي المساء... والغارات الجوية متتالية لطيران العدو بلا هوادة، والتي تشتد حين ينجح الجيش في عملية داخل الأرض المحتلة على الضفة الشرقية للقناة، ومع انطلاق صفارة الغارة المتقطعة، يهرع الجميع من السيدات والعجائز حاملين أطفالهن إلى المخابئ المخصصة، وينتشر الشباب والرجال للمعاونة والتأكيد على تنفيذ تعليمات الدفاع المدني ومعاونتهم، حتى تمر الغارة بسلام، وتنطلق مرة أخرى الصفارة الطويلة التي تعبر عن الانتهاء، ليعود المختبئون إلى منازلهم ساخطين ومُرددين دعوات من قلوبهم المحترقة لإسرائيل بالفناء ونصرة جيشنا، الذي يستعد وبشدة لمَلمَة أشلاء تناثرت ومُعدات قُصفت وإصرار على الثأر وعودة الكرامة.

الفصل الخامس

صعد الشيخ طه منبر المسجد لخطبة صلاة الجمعة، بعد التحية والصلاة على الحبيب، كلمات يستبق اللسان فيها القلب بل ويعارضه، ظل يربط بين جيش مصر والمحاربين من الصحابة عتاة الإيمان، بل تَطرّق إلى تشبيه القادة الحاليين بأسماء ذكرها التاريخ، فاتحين بقوة إيمانهم وقد رفعوا راية الإسلام من الشرق إلى الغرب.

ظل على هذه الحالة المُفتَعلة، حتى أتت نهاية الخطبة العصماء بالدعاء لنصرة القائد وأعوانه على أعداء الإسلام، بينما خيالات من أهانوه بقسم الشرطة تتراقص وتضحك بسخرية أمام عينيه، يزداد انفعاله ويبكي ثم سقط مغشيًا عليه مستمرًا في النحيب والوجع.

رفعه المصلون ليأخذوه إلى المستشفى للعلاج ورافقوه، وما تركوه إلا عند نقله إلى العناية المركزة، تم عمل الواجب الطبي تجاهه بعناية من الأطباء، مُقدّرين مكانته الدينية ومَلْبسه الأزهري ذو الشأن والقيمة في نفوسهم.

أبو صاصا منذ البداية ما ترك أمامه في المسجد لحظة حتى أفاق وتحدث إليه:

- مالك يا شيخ طه؟ كنت زي الفل قبل ما تطلع المنبر .. دا انت كنت بتضحك من قلبك واحنا مع بعض قبلها .. وبتفتكر الوله الكوز وهو عسكري مسخرة .. افتح لي قلبك يا شيخ .. محتاج إيه بس قولي وربنا يدبرها.

الشيخ طه في حزن مؤلم وبصوت يكاد يُسمع:

- الدنيا كلها ملخبطه معايا .. استغفر الله العظيم .. اللهم لا شكوى إلا إليك .. أم البنات روحنا كشفنا عليها في الأميري الأسبوع اللي فات .. طلع عندها المرض الخبيث .. البنات بتكبر ومصاريفهم بتزيد .. أنا صحتي في النازل ولله الحمد .. زاد وغطى كل ما اطلع المنبر وأدعي بالنصر للبلد واللي ماسكينها .. تجيلي خانقة في النفس .. واتمنى الموت قبل ما أنطق حتى لا أموت منافقًا .. ولا أخفيك سرًا .. بهدلوا كرامتي في القسم عندما قبضوا عليّا من كام شهر فات.

- وَحِّد الله يا شيخ .. دانت اللي بتنصحنا وتدينا المواعظ و كده .. إيه يا شيخ هو باب النجار مخلّع والا إيه ؟! .. هئ هئ هئ .. تبات نار تصبح رماد .. والمصحف هاتُفرج وتبقي فُلّلي.

- بالله عليك يا اخي ما تجيبش سيرة عن اللي حصلي في القسم.

- سرك في بير يا شيخ .. حالنا واحد.

- بالله عليك إن أمكنك تشوفلي شُغلانه غير إمامة المسجد دي .. عايز أحترم

سني وعقلي .. وكمان الأمانه اللي شايلها أمام رب العزة.

- وإن كان طلبك صعب .. وانت داري بحال البلد .. والأزمات بتزيد يوم عن يوم.

- لك الأمر يا صاحب الأمر.. دبِّر لي أمري فأنا لا أحسن التدبير.

مرّت الشهور الأولى من العام ٦٩ والمرار يكاد يخلق حلوق أهل المدينة، وقد اشتدّت الغارات الجوية للعدو الإسرائيلي على المدينة الصامدة، حيث تم استهداف العُمق المدني دون مراعاة لأية قوانين إنسانية أكدّت على سلامة وحقوق المدنيين أثناء الحروب، وحرص أطراف أي نزاع عسكري على ذلك، بينما العدو محتلاً ومغتصباً لأراضيهم، ولم يكتفِ بالاحتلال، بل يزداد قسوة وغروراً وصفاقة للتدمير وقتل أرواحًا بريئة لا ذنب لها، إلا أنها تقيم في مدن المواجهة.

لا غرابة في قصف سوق الروضة بما فيه من مواطنين بائعين ومشترين الخضروات والأسماك، ومحطة معالجة مياه الشرب بشارع رقم ١٠٠، وامتد القصف العشوائي الغادر إلى منازل وسط المدينة آهلة بالسكان بشارعي دمنهور والحميدي، لتخلف وراء قصف هذا العمق مئات شهداء الغدر والمصابين.

لا مفر أمام القيادة السياسية والعسكرية في مصر، إلا التحرك واتخاذ قرار التهجير الجبرى لأهالي مدن القناة عامةً، حرصًا على عدم وقوع مزيد من الضحايا، وقد أعدّت العُدة لذلك، فأصدرت تعليماتها للحاكم العسكري لمدينة بورسعيد لوضع كافة الإمكانيات لتنفيذ القرار، تم رصف طريق دمياط/بورسعيد لتيسير الحركة تجاه غرب المدينة، عمل كشوف بأسماء المدنيين الذين سوف يُديرون مرافق المدينة وخدماتها بعد تهجير الأهالي، بل أسرعت مديرية التربية والتعليم من تيسير إنهاء العام الدراسي، حرصًا على مستقبل التلاميذ والطلبة.

أم الكوز تنادي على أم صاصا من النافذة، بعد صلاة العشاء وعودتها من انتهاء يوم العمل بمحل الدراجات التي تديره بديلًا لبنها الكوز أو الجندي العربي.

- يا أم صاصا .. انتي ياختي اطلعي كلميني.. قلبي واجعني م اللى بسمعه.

- خير يا ام روءه .. مالك مجعوزة كده ليه؟! .. طمنيني عليكي.

- بسمع يا حبيبتي ان المحافظة ناويه تهجّرنا كلنا .. ونسيب بيوتنا وبلدنا .. هو ينفع نعيش بره البلد!! .. ونسيب كده الجمل بما حمل.

- مش عارفه والله ياختي .. لما ييجي ابو صاصا أسأله .. دي تبقي حقه نصيبة سودا وحطت علينا .. وان كان الكلام ده صح هتعملي ايه يا حبيبتي .. وناوية تروحي على فين؟

- مقداميش إلا أروح بلدنا في الشرقية .. أقلها ألاقي بيت أبويا يتاويني أنا وابني العربي .. أما روءة بقى تبع شُغله.

- ربنا يجيب المخبي لطيف .. والله حاجه تغُم .. أهو أبو صاصا اجه .. بعد إذنك ياختي اشوف النصيبة دي معاه.

أبو صاصا دخل منزله مُطَأطِئ الرأس المُحملة بهموم مسئوليته تجاه منزله، والتي أصبحت يداه مغلولتان تجاه احتياجاته اليومية حتى البسيط منها.

- سلامو عليكم يا ام صاصا

- وعليكم السلام .. مالك يا راجل انت لسه مهموم .. ماقولتلك سيبها لله هتدبر والبيت مستور والحمد لله .. طب دانا هعشيك النهارده بكلويز وكفتة جمبري... وهتشوف عمايل مرات ابنك ليزا وشطارتها .. البت ياخويا باين إنها هتغلبني وتروح عليا وابقي كُهنه هئ هئ هئ .. ألا قولي يا ابو صاصا صحيح هنهاجر من بورسعيد؟

- أيوة يا ستي ده اللي مخليني شايل الهم اكتر.. هنروح فين بس يا ربي؟ دبريني يا ام صاصا...

- أرض ربنا واسعة ياخويا.. وأدينا احسن من غيرنا ..ع الاقل بيننا وبين قرايبنا في دمياط فركة كعب.

تدخل ليزا عليهما من المطبخ مُلْقية السلام وتقول:

- مامى صاصي.. انت عارف حبيبي ان فيه بيت بابي فاضي في اسكندرية.. نروح هناك .. والبيت واسع ويشوف بحر كمان.

أبو صاصا وقد أعجبه وصف ليزا يتهلّل فرحًا:

- والله فكره حلوة يابنتي .. أقله اشوف شغل في المينا هناك حتى لو سوّاق لنش.

أم صاصا لم يعجبها رد زوجها المُندفع لتقول:

- على مِهلك بس يا راجل م الصربعه اللي انت فيها دي .. احنا نروح آه بعد ما ناخد رأي صاصا .. بس ندفع إيجار المطرح .. عشان نبقى قاعدين مرتاحين.

- مامي صاصي .. دا كلام حبيبي!! .. احنا أهل ..أنا أُم حفيدكم ومرات ابنكم .. ليه نفكر كده مع بعض؟! .. أنا زعلان كتير منك ماما.

- قُطُع لساني يا بنتي .. وربنا المعبود ما اقصد ازعلك .. دا انتي مش مرات ابني وبس .. دا إنتي بنتي .. يلا بقى بعد ما نتعشى نروح نزور بطة بنتي في الافرنج.. وميمي .. ونشوف هيعملوا ايه في الحكاية السودا دي.

أم الكوز تلاعب حفيدها " روءه "، تسجد له ليمتطي ظهرها وتقول:

- قول شي يا حمار وانا هامشي .. بس امسك في رقبتي لأحسن تقع يا بن الغالي.. قول يا وله شيبيي بالجاامد وسمَّعْني صوتك .. ياما عملت حمار لابوك

وهو صُغَيّر .. والواطي كان يشدني من شعري واني أصَوّت وهو يضحك .. واحشني قوي أبوك (أخذت تبكي بحرقة) .. انزل بقى يا وله ضهري وجعني عشانك تقيل تِشه .. يا سوكينة .. يا سوكا .. تعالي عايزاكي .. سيبي الغسيل اللي في ايدك وتعالى.

- نعم يا أُمي .. لبيكي.

- ياختي هو انتي طالعة الحج؟! .. ارحمي اللي خلفوني.

- نعم لا بأس يا أماه .. إني أسمعك.

- ياااارب ثبتني يا رب .. شوفي يا بنتي شكلها كده هيرحَّلونا من بورسعيد.. واني ناوية نروح كلنا بلدنا وبيت ابويا اللي في الشرقية .. نقعد في خير المرحوم ابويا.. ومنبقاش أغراب عند حد.

- عين العقل والفكر الراجح يا أمي .. وبالطبع أبي وأمي وأخواتي معنا.

- مين أبي وأمي دول؟ هي فته يا بت .. بقولك بيت أبويا مش بيت أبوكي الشيخ طه....

- مهلك يا أُمي .. أوتعلمين أن أُمي بعد الكشف عليها وجدوها مصابة بالمرض الخبيث؟ ..لذلك لن أتركها وأبي وأرحل بعيدا عنهما...

- يا ساتر يارب .. اللهم احفظنا .. ربنا يشفيكي ياام سوكا ويعفي عنك قادر يا كريم .. طب يا بت مقولتليش ليه عشان كنت أروح أشوفها وأعمل الواجب .. دي

ست أميرة والله .. مش زيك خبيثة طالعة لابوكي .. ده انتي حتى علمتي الوله الغلبان العربي ابني " السهتنة " واللؤم.

- سامحك الله وأعزك يا أُم الغالي .. ماذا قولتي بشأن رحيلي مع أبي وأمي؟

- هاقول إيه!! .. ماسكاني من إيدي اللي بتوجعني .. هو انا أقدر أسيب حبيب نينا "روءه" بعيد عن عيني لثانية واحدة .. أمري لله .. وربنا يصبرني على جيرتك العسل يا شيخ طه.

وزارة الشئون الاجتماعية بكل محافظات مصر، وضعت خِطّتها لاستقبال ضيوفها من مدن القناة الثلاث، نحو مليون نسمة، ويزداد العبء بهم على أعباء يتحملونها، من غلاء أسعار السلع والخدمات في كل ربوع القطر المصري، الذي يتردد في أنحاءه مقولة الزعيم عبد الناصر "لاصوت يعلو فوق صوت المعركة"، فكل الحركات والتحركات والإتاوات لصالح المجهود الحربي دون نقاش.

اختار ميمي وزوجته بطة التَّهجير لمدينة رأس البر، ليبقى قريبًا من عائلته بدمياط وقت الشدة، وقد شابه قراره "روءه" الابن الأكبر لأم الكوز، في حين صاحب المقهى المعلم العربي، اختار قريته بصعيد مصر، أما الدوح والنوصة اختارا مدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية.

صدر القرار الجمهوري بالتهجير القسري للأهالي، عدا المستبقين منهم، وصار قيد التنفيذ في شهر مايو من العام ٦٩ .

كانت مدينة "رأس البر " الساحلية ومحافظة دمياط ومراكزها عامةً، المقصد الأول لتهجير أهالي مدينة بورسعيد، لقرب موقعها غربًا وحتى مناخها يكاد يكون واحدًا، كان لمدينة رأس البر مزايا عدة، منها أنها مدينة على ساحل البحر المتوسط نقطة التقاء فرعي النيل، وتسمي هذه النقطة " اللسان "، وكانت تنشط شهور الصيف وباقي العام خاوية على عروشها، الشاليهات فيها جدرانها مصنوعة من " الأكياب " عششًا مستقلة، ليقطن في كل عشة أسرة بورسعيدية.

الجميع يتأهّب للرحيل عن المدينة متجهًا إلى حيث اختياره محافظة مَهْجرًا له، لا يدري متى سيعود لمنزله ومدينته، التي تزداد فيها أوكار الغربان كلما رحلت عنها بضعة أُسر، ويزداد نعيقها مختلطًا بنحيب وصراخ أهل المدينة المقهورين بالرحيل عن مدينة البهجة والجمال إلى مصير مجهول المعالم والزمن.

كل يوم تتحرك قوافل الأتوبيسات من غرب بورسعيد وجنوبها، الحسرة تملأ القلوب ودموع الأعين لا تجف، يالا وجع الغُربة عندما يفترق الأهل والأحبة.

يجلس الأستاذ ياسين على مقهى المعلم " العربي البدري" على أورنة "ناصية" الشارع، يبتسم للمارة الذين يحملون أمتعتهم، بعد حصر أعداد كلًا منهم، ومعرفة مكان التهجير للمتوجهين إليه، بعد ابتسامته التي لا معنى لها، يصرخ صرخة الجريح الغافل عمّن طعنه ثم هرب واختفى، كعادته يأتيه وحي الشعر على المقهى ويقول:

رايحين على فين ومش راجعين

هيحاسبهم ربُّهم عن عمايلهم فيكم يوم الدين

قالوا لنا هنرميهم البحر .. أدينا احنا اللي غرقانين

فيها إيه لو زرعوها ورد و حَبّ

آه آه.... مِنكم لله يا ولاد ال....

البيو بعد التحية المحترمة للأستاذ ووضع كوب الشاي يسأله:

- هتهاجر فين يا أستاذ؟

- ههاجر للعريش وبير العبد .. وابعد عني يابن ستين(....) ها ها ها ها....

(بكاء وعويل).

أيام قلائل، وفرغت المدينة الطيّبة من ناسها الطيبين، راحلين .. باكين .. آخذين معهم ذكرياتهم إلى غُربة النفس والبدن، لا يعلم مداها إلا الله، عشش

الغربان مكان الإنسان، النعيق يحل محل ضحكة طفل بريئة، مدينة بأسرها كانت تعج بحيوية وبهجة ساكنيها، أصبحت خاوية على عروشها، عدا القليل منهم، لازالوا بها تحت مسمي بغيض وأليم "مستبقين"، استبقوا في مدينتهم يلفهم الحزن وألم وداع أهليهم وذويهم، الفرد منهم ينام وحيداً، لا تؤنسه زوجة، ولا يسمع ضحكات أطفاله التى كانت وهم يلعبون ويصرخون وهو نائماً وقت العصاري ليقوم صارخاً فيهم، "وطوا صوتكم يا ولاد الكلب عايز انام عشان وردیتي بالليل ابقي مصحصح"، ليتهم ظلوا وما نام ليلاً ولا نهاراً.

الصمت الرهيب حول كلاً منهم في وحدته يدفعه نحو الكآبة، وما عليه إلا تحمل قسوة الأيام ومرورها البطيء، ليلتقي بهم ولأحوالهم لن تسره ولن تسرهم، هم المغتربون أينما كانوا..

****

الفصل السادس

محافظة الشرقية، أهل الجود والكرم قرى ومراكز، طبيعتهم تقودهم على الدوام نحو الترحيب بضيوفهم وتقديم ما في أيديهم لهم وهم مبتسمين، حلو الكلام منهم يخرج من القلب بعفوية الكريم صاحب الأصل الطيب.

عائلة أم العربي "الكوز سابقًا"، توجَّهت إلى قرية الجذور، حيث منزل الأب الفسيح والسهل أن يسع معها عائلة الشيخ طه رقيق الحال وزوجته وابنتيه، تلك كانت رغبة سوكينة، زوجة العربي التي نجحت في إقناع أم العربي بهجرة أبيها وعائلته معها، لتكون بجوارهم رحمة بأمها المصابة بسرطان الدم، وقرر الأطباء في بورسعيد أن أيّامها معدودة، بالطبع هناك علم سبق، بوصول هذا الفوج إلى القرية، وتمّ الاستعداد التام من خلال الأخت الكبرى"هانم"، ومعها أولادها لاستقبال خالتهم ومن معها بعد قرار رئيس الجمهورية بالتّهجير القسري من مدينتهم بورسعيد، حرصًا على أرواحهم التي أصبحت في خطر، وكثيرًا من الأرواح زُهقت جراء العدوان الجبان، من طائرات العدو الصهيوني الضارب

بعرض الحائط كل المواثيق والأعراف الدولية، والتي تنص على حُرْمة دماء المدنيين أثناء المعارك العسكرية.

أم الكوز تستعرض العفش القادم معها بعد نزوله من السيارة، وهي حاملة حفيدها "روءه"، ابن العربي المُجنَّد والمتواجد في كتيبته قرب مدينة الإسماعيلية

أم العربي (الكوز):

- شوفتي يا سوكة.. بلدنا هواها يرد الروح ازاي؟.. شايفه اختي استقبلتنا وأولادها اسم النبي حارسهم من أول البلد .. وهمّا ناقص يشيلونا من على الأرض .. برضه الدم عمره ما يبقى ميه ولا حتى عرقسوس .. والنبي هيوحشني العرقسوس بتاع عيسى اللي في الحميدي .. يلا كلها كام يوم ونرجع بورسعيد بعد ما نكون دغدغنا اسرائيل .. دا احنا معانا جيش يهز الدنيا من مكانها .. ده كفاية فيه دلوقتي ابني العربي .. وحشني الواطي .. ابقي اكتبي له جواب قوليله احنا في البلد وقاعدين في بيت جدك.

- حاضر يا امي سوف افعل ... بالفعل اني افتقدته.

أم الكوز تصرخ وتُقاطعها مُنْدفعة بصوت عالي:

- بعد الشر عليه .. ايه افتقدتيه دي؟ تفي من بقك.. الملافظ سعد يا بلوة انتي .. ربنا يجيبك بالسلامه يا عربي يا واطي .. الّا ما فتكرت أُمك بجواب ياعربى .. تقوليش مشغول في حرب المعيز.

سُكينة بعد الدش البارد من حماتها تقول بهدوء:

- سامحك الله ياأمي.. افتقدته يعني واحشني الغالي.

شهْقه من أم العربي ونظرة نارية نحو سُكينة:

- اتسهوكي ياختي وقولي اصل انا جاهله.. مع اني بقت انا قعدت لغاية ستة ابتدائي وطلعوني من المدرسة عشان اتجوز أبو روءه .. والله افتقدتك يا ابو روءه ياللي كنت مهشّكني ومدلّعني .. مع اني كنت زي حجر سبس "دليسبس" بعيد عنك.. دلوقتي اتعلمت الدلع على كِبَر.. وبقيت فرفوشة .. بس بعد ايه يا انصاف؟.. بعد ما شدوا اللحاف.

- متَّعِك رب العالمين بالصحة ياام الغالي.

- طب كفايه يا ختي قر ونق ورغي .. روحي بقي دخَّلي العفش مع النسوان.. عيب عليكي دول جايين يساعدونا واحنا نستلطخ عليهم ؟!.. يلّا انتي وانا هقعد على المصطبة .. ومعايا حبيب قلبي وفشتي اللي نايم يا ضنايا من ساعة ما وصلنا البلد .. يكونش مش طايق ريحة الناس اللي كانوا بيبوسوا فيه !! ..

الشيخ طه شارد الفكر وفي حالة ذهول وتوهان، يُحَدِّث نفسه حزينًا على ما آل إليه حاله:

- وبعدين يا طه والغُربة المُرة دي .. لا حد يعرفك فيها ولا انت تعرف حد ...

ولا حد هيحس بيك .. ام بناتك سندك وعكازك ايّام وتسييك لوحدك مع البنتين اللي لا ليهم حول ولا قوة .. كنت فين وبقيت فين !!.. كنت هناك أعمى وكان هناك اللي يدلك على الطريق ويساعدك بالخير في كل مناسبة .. والبيت جنب الجامع .. دلوقتي بقيت اعمي وعاجز التصرف .. هو فيه بلد زيك يا بورسعيد بلد كل غريب .. بلد خيرها كتير وناسها حلوه.. يحسوا بيك من غير ما تتكلم.. روحهم حلوه .. كنت احس فيها إن أهل بيتي طبخوا اربع خمس أصناف على الغدا.. واعرف بعدها ده كله جاي من عند الجيران ولازم ندوق اللي طبخوه .. يارب انت العالم بحالي وغني عن سؤالي .. اكفني بك عن عبادك وأغنني عن سؤال خلقك .. ولا تحوجني عمّن سِواك ولا حول ولا قوة إلا بك .. نعم الرب ربي يصرف عني ما أنا فيه ... ويدبر لي حالي وانا العاجز لا أُحسن التدبير .. تولي يا قهار أهل بيتي بفضلك وسترك وجبرك يا عزيز يا جبار ....

يوقظه من غفوته الطبيب ابن هانم أخت أم العربي يُطَبطِب على ظهره ويقول:

- نورت بلدنا عم الشيخ طه .. مالك يا عمي .. حاسس انك مهموم .. ازاي بقى واحنا حواليك اتشرّفنا بيك .. بلدنا حلوه وناسها طيبين .. انا الدكتور محمود وخالتي ام فاروق والعربي.

- أنعِم وأكرِم يا دكتور .. بلدكم حلوة بقلوبكم وأرواحكم .. جزاك الله كل خير .. طبيعي ما انا فيه وكل المُهجَّرين كانهم ماتوا .. وفيه مثل بيتقال " البورسعيدية

زي السمك .. ان خرج من بيئته مات " .. وأكيد يا دكتور عارف موقع بورسعيد على الخريطة .. حواليها بحر وقناه و بحيره .. يعني ما يحبوش يسيبوا المكان.. لان مش هيلاقوا زيه تاني.

- كان الله في عونكم وخفف عنكم اللي انتم فيه.. عم الشيخ طه هات ايدك نروح على البيت .. أهل بيتك سبقونا هناك .. يلّا اتفضل معايا شيخنا الكريم ترتاح من السفر ...

أنوار منزل لم صاصا لطفلات، بعد رحيل من كانوا يتغنّون بأغاني المودة وعطر القلوب منثور بين جنباته، كانت وجهتهم مدينة الإسكندرية عروس البحر، المسافة بين بورسعيد والإسكندرية حوالي أربعمائة كيلو متر، مما جعل لعناء السفر بطولة قهرت أجسام أفراد العائلة المُرْهقة نفسيًا، كلّما ابتعدوا مترًا واحداً عن مدينة هي الروح والحياة ونور قلوبهم، ضاق الصدر وصَعُبَ التنفس هواءً مغاير لما اعتادت صدورهم تتلقاه بتقاته، الجفون ما استطاعت أن تُغلَق، والعيون يُغطي بياضها لون نبح العقول الغير مُصدقّة الرحيل.

تحرّك الجميع كما الأموات، برغم أن نسمات الإسكندرية تُداعب وجوههم، شبيهة بنسمات الحبيبة بورسعيد، صعدوا جميعًا أسانسير العمارة التي فيها شقة ليزا، الموروثة عن أبيها الراحل القبطان المصري، الذي اختار وليفته يونانية

الجنسية وللقلب ما هوى، كانت نتيجة اقترانه ابنته الوحيدة وزوجة صاصا حبيب القلب الذي حذا حذو أبيها، الشقة تقع في حي " كامب شيزار" العريق، الذي سُمي بهذا الاسم ويعني (معسكر القيصر)، الشقة تطل على بحر الإسكندرية البديع، فسيحة المساحة تسمح لساكنيها حرية التّحرك والخصوصية.

ليزا تُرحب بالجميع:

- هالو بيكم أهلي في بيت انتم كلكوا .. نورتي مامي صاصي بابي صاصي حبيبي صاصي .. كمان طفل جميل ناصر نورت حبيبي هئ هئ هئ...

أُم صاصا ابتسمت وقالت:

شقه ما شاء الله .. شِرحه وبِرحه وملايكتها خفيفة .. ربنا يجعلها عتبة الخير ونرجع بورسعيد بسرعة .. واحشني بيتي (بكاء مرير).

تضمها ليزا بحنان بيدها، واليد الأخري تحمل ناصر ولدها وتقول لحماتها الباكية:

- بليز مامي .. انا حاسس بيك حبيبي .. انا فرحان اننا مع بعض كله .. شوية ونرجع بورسعيد تاني كله .. هنا أمان مامي.. اكيد انت خايف على حفيد ناصر وخايف كمان علي حبيب صاصي .. وخايف علي حبيب كبير بابي صاصي .. وبس مامي..

تقاطعها أم صاصا في استنكار: كده برضه يا ليزا؟ انا خايفة عليكي قبلهم وعلى

ناصر حبيب الملايين .. نستيني يا ليز يووه .. انزل يلا يا ابو صاصا كده اطّقس الحِتّه .. وهات لنا شوية حاجات للتلاجة .. اوعي تتوه يا اخويا .. هنا مفيش "أبو شحم" يدوّر عليك.. حقه !! .. دي تبقي خيبه لما تتوه ونقول ان عندك ستين سنه ها ها ها .. يلّا ابقي اعمل علامات في الشوارع عشان تعرف ترجع لنا بالسلامه.

- مانتي لسه كُنتي بتعيطي .. هترَوَّقى وتفوَّقي عليّا دوقتي؟.. وبعدين مين اللي عنده ستين سنه ده؟.. دانا يدوبك عديت الخمسة وخمسين .. ولعلمك لو كانوا سننوكي صح كان زمانتك عديتي السبعين.

- شوفي يا خواتي الراجل .. والمصحف لولا انك حلقت شنبك وسبغت شعرك كان زماني اقولك يا جدو .. وكمان بقى أغنيلك يا راجل يا عجوز مناخيرك قد الكوز ....

يتدخل صاصا كالعادة عندما يزداد سلخ ابيه:

- وربنا انتم الاتنين عسل وطحينة مع بعض .. بتِخْزوا العين عنكم وتشَّاكلوا قدّامنا .. يلّا يا ابو صاصا هاجي معاك الحرس بتاعك.

- لا يا حبيبي وحياتك انا الف الكرة الأرضية وأنا مغمض عينيه ورافع ايديا ... صاصا يصفق ويقهقه: يا ابو صاصا يا جامد..طب خدني معاك نلف العالم سوا.

ليزا في حسرة: تلف عالم وحدك صاصي وتحب نسوان هناك؟ .. ويمكن تتجوز

كتير .. وليز تبقي كديمة.

أم صاصا تشعر مشاعر حب ليزا لابنها صاصا وتنفعل:

- سيبك منهم يا ليزا ... بيمهيصوا على بعض.. يعني بيفشروا يا حبيبتي .. وحياتك لو لفوا الدنيا كلها ما يلاقوا ضافرنا .. والاتنين يرجعوا زي خيبتها .. يلّا يا فالح انت وابوك البورم ..وعلى الله بس تعرفوا ترجعوا ها ها ها...

ما إن استقرت عائلة أم صاصا في مدينة المَهجَر الأسكندرية، وأثناء تناول الغذاء الذي أعدته ليزا وبعد تردد قال ابو صاصا:

- واجب يابني تتصل بالست ام ليزا تطمنها علينا.. وتقولها ان احنا في إسكندرية في أمان وخليها تيجي نشوفها وتقعد معانا.

تندفع أم صاصا بغيرتها مع نظرة حادة تجاهه:

- قصدك تطمن على بنتها وتشوفها .. واخد بالك يا ابو صاصا يا فتك؟

أبو صاصا يفهم لغز ما قالته ويتلعثم قائلًا:

- ايوه ايوه الله يفتح عليكي يا ام صاصا .. هي ليها مين في الدنيا الا بنتها ليزا.. ربنا يخليهم لبعض.

من هاجر من مدينة البهجة والجمال إلى مدينة رأس البر بصفة خاصة، قد يري البعض أنه محظوظًا، لقُرب المدينة من الوطن الأصغر، وأنها شهدت تجمُّع من أهالي بورسعيد، لذا تهون الغربة وضعف ما فيها من ألم المشاعر للفراق، الحقيقة الغُربة هي الغُربة والحنين إلى اللقاء يبقى ويزداد كلما مرَّ يومٌ قبل عناق من رحلنا عنه مُجبرين.

لقد أصبحت بورسعيد ثكنة عسكرية، لا يدخلها إلا من حمل تصريح الدخول ولأيّام محدودة ولسبب واضح من غرض الزيارة، ألا يكفي أن يُطلق عليهم مُهجَّرين؟ ألا يكفي فقدان وظائفهم وأعمالهم سواء بالبحر أو البر؟ ألا يكفي أن ينتظروا إعانات الشئون الاجتماعية شهريًا وبعض الملابس المُستعملة والبطاطين، يقفون طوابير في انتظارها حين الوصول، وينادى عليهم من خلال كشف مُدَون فيه الأسماء، وقلوبهم تتفطر على وقفة المهانة، وداخلهم أنين لا يُبَدّله ولا يمحيه إلّا قرار العودة من حيث أتوا، ليُبعثوا من جديد في مدينة ما رأوا فيها إلا الخير والبهجة والجمال .

عائلة ميمي وبطة وولدهما الصبي "الرزه" والرضيعة "روحيه" كانت قِبلة تهجيرهم مدينة رأس البر، ليسكنوا أحد عِشّشها كما يُطلق عليها وقت المصيف الذي ما عاد مصيفًا بعد وصول أفواج المُهجَّرين إلى المدينة، فالجميع في خسارة

كلّما زادت فترة التهجير.

حُزن بطة بطبيعتها فج، خاصة ما برحت منزل أمها الحنون إلّا أشهر قليلة وقتما اختارت سكن جديد في حي الإفرنج، الذي وإن بَعُد تكفي خطوات للوصول إلى حُضن أمها، رحل الآن عنها الأم والأب والأخ الغالي على قلبها الطيب، ويرحل معهم أمان كانت تعيشه في كنفهم، لمَّا وجدها زوجها ميمي مهمومة، بعد استقرارهم بالعِشّة التي خُصصت لهم من قِبَل الجهة الإدارية المسؤولة عن تسكينهم توجه إليها بنظرة حنان وحب زوجة يشعر بألم بُعْدها عن أهلها وقال:

- البطه الحلوه قلقانه ليه؟ .. قوليلي .. اعتبريني حبيبك وفضفضي يا ام الرزه اللي بقى أطول من ابوه.. يلّا يا سكر عشان انزل السوق اجيب لك مشبك وفطيرة بالسكر .. ويمكن أفِك الكيس واجيب لكم كباب وكفته .. ان شا الله ما حد حوش.. شوفي انتي بقى دمياطي زيي هيشبرق عليكم ويصرف بيجي خمسة جنيه هييي ههههي .. ما تردي عليّا يا قمر .. دا حتى عشان احس ان انا فبيبس وببعتر على حبيبتي بطه وام عيالي.. وشووووبش يا ام الرزه.

أحسَّت بطة بمحاولته الودودة في ان تضحك وتخرج من حزنها، فابتسمت وقالت:

- أبويا وامي وحشوني قوي يا ميمي وأخويا صاصا ومراته وابنه.. كلهم وحشوني قوى..والشيطان ابن الهِرمة بيقولي اني مش هشوفهم تاني ..وربنا المعبود دانا اموت فيها (دموع ساخنة تنساب دون توقف).

- يا وزتي الحلوه ..دي فركة كعب بينا وبينهم .. هو يعني هما راحوا اتينا!.. دولم راحوا إسكندرية .. كام يوم كده نروح نزورهم.

بطة بفرح ولهفة: بجد والنبي يا ميمي؟

- طبعا جد ونص والنعمه .. نسيت في الدربكة اخد منهم العنوان .. بس مجرد ماعرف عنوانهم نروح لهم.

- يا مصيبتي يا ميمي ..وانا اللي فاكراك اخدت عنوانهم .. يعني ايه!!.. مش هقابلهم تاني خلاص؟ (ثم رفعت صوتها).

- وحياة المصحف على عينيه يا ميمي لانت نازل اسكندريه تقلبها لغاية ما تلاقيهم .. وافتكر لصاصا أخويا اللي مانمش الا لمّا جابك من بلاد بره بتاعت الجريج .. وما ارتحش الا لما بقيت في بيتك .. افتكر كويس عشانك بتنسي قوامك.. دي اسكندريه يا ميمي مش بلاد العينين الزرقا اللي بتموت فيها يا حبيبي.

يبتسم ميمي بتعاطف على حالها يقول:

- ربك يدبرها ..والله مش عارف ازاي.. لكن اوعدك ورحمة ابويا هعمل كل اللي

اقدر عليه .. اسيبك دلوقتى اروح اجيب حاجات للبيت وارجع نفكر سوا .. سلام يا بطتي.

- ماشي يا ميمي أتهرَّب مني .. وحياة أمي الغالية قدَّامك اسبوع بس .. وتكون جبت عنوانهم في اسكندرية .. والا هتطق في دماغي اسيبلك عيالك وأسافر اسكندرية لوحدي ومش هسيبها الا وانا في حضنهم.

- حاضر يا قمر.. حلوه حضنهم ديَّت.. طب الأول حضن ميمي وبعدين حضنهم ها ها ها....

- حاكم انت دماغك شكوري.. يلّا يا بتاع العيون الزرقا والبنفسجي ..إنما العيون السودا تعمل أحول.

- ميمي يضحك ويغني:

احول ملك روحي .. يا حبيبي تعالي تعالي بالعجل...

- اللي خدته القرعة تاخده ام الشعور .. متغيبش يا ميمي .. ربنا يهديك ويعمي عينيك عنهم...

الأستاذ ياسين مُدرس اللغة العربية سابقًا، والشاعر الذي كان مُجندًا أثناء هزيمة يونيه ٦٧ وتاه في صحراء سيناء أثناء الانسحاب القهري للجنود هناك، وما عاناه حتى عودته لمنزله ببورسعيد، تلك المُعاناة قال عنها في لحظة وعي: أن الطيران الإسرائيلي كان يتتبعهم، وهم يفرّون مذعورين، يقترب منهم ويضحك عليهم جنود العدو وقائد الطائرة الهليكوبتر، ثم يسبّوهم أقذر السباب

وهم فوق رءوسهم، ويبتعدون عنهم ثم يعودون مكررين ما سبق مرَّات، ومرَّات أخرى يقتعلون أنهم سيقتلونهم، ثم يتراجعون عندما يرونهم خائفين من القتل لتزداد لعنات الأوغاد عليهم باللغة العربية.

تكاتف أفراد أسرته المكونة من أب وأم وأخت عليه، حتى اقتادوه إلى أتوبيس التهجير، لتكون وِجْهتهم القاهرة، بما فيها من زحام يتوهون فيه مع ياسين، لا يعرفهم أحد لحالته النفسية التي تسوء، وأيضًا الأمل في علاجه بمدينة الألف مئذنة، وقد حددوا إقامتهم بأكبر حي بالقاهرة ازدحامًا بالسكان، وهو "حي شبرا" العريق.

حالة من الهدوء انتابت الأستاذ ياسين بعد هيجان، ثم ينظر لمن في الأتوبيس ويقول:

رايحين على فين وسايبين سلاحكم

قالّكم كلام معسول عشان يريّحكم

صدّقتوهم ... الله لا يسامحهم ولا يسامحكم

كلكم كذّابين ... كفايه بقي غش و نصب

وصدَّقوني مرة واحدة يا ولاد ال....

الفصل السابع

صَمْت القبور وموت المقبورين أحياءٌ مع بردٍ قادم لفصل شتاء لياليه انعدمت فيها رؤية نور خافت وسط الظلام، قلوب تئن وألم البعاد يصيب القلوب الباقية والمستبقية بعد من رحلوا وقيل عنهم مُهجَّرين، الشوارع باتت مسرحًا للقطط والكلاب، وعشَّش الخوف عناكب فوق الرؤوس المُتَرنّحة بعيدًا عن أمل ضاعت ملامحه، وانتحرت الابتسامة عند رؤية الخراب هنا في مدينة الحياة بورسعيد بعد تهجير سكانها الطيبين.

حدثت بعض حالات وفاة طبيعية، وحادث قتل خلال شهرين منذ التَّهجير بين المستبقين بالمدينة، تلك جعلت الفرادي في الإقامة يتجمَّعون في منازل، كل مجموعة متآلفة في منزل للأمان والرعاية، ومعرفة بعضهم إما بسبب العمل أو الجوار، كلٌ منهم لا يرتضي أن يموت بين جدران منزله منفردًا، وتبقى جثته لا يدل عليها سوى رائحة العفونة المنبعثة منها.

تأتي إحدى صلوات ظهر الجمعة بالمسجد العبّاسي، واللون الكاكي يسيطر على المصلّين من أفراد القوات المسلحة، وتختفي بعض ألوان الزي المدني المتناثرة بين المصلّين شأن كل مساجد المدينة، " الرحمة " و" لطفي شبارة " بحي الإفرنج بينما " التوفيقي" و"علوان " بحي العرب و"صالح سليم" غرب المدينة والحال أيضًا ببورفؤاد الأنيقة والجامع الكبير بها وغيرهم، كل المساجد حزينة، ترتفع فيها الأصوات فحسب وقت دعاء الخطيب بالنصر، ودحر العدوان الصهيوني.

أم الكوز وقد التقت شقيقتها الكبرى هانم، التي أمدّتها بمخزون المنزل، للتخفيف من معاناتها وحِرصها على اتّباع عادات أهل الشرقية الكرام.

نورا "أم العربي الكوز":

- ياختي متحرمش منك يا هانم العمر كله.. ولا يجعلك تهاجري وتسيبي بيتك ابدا ويبقى عَمران بيكي و بأولادك .. متشكرين يا هنومة.

- عيب عليكي يا نورا .. مش ينفع شكر بين الخوات خالص.

أم العربى في سخرية:

- مش ينفع؟ .. قولي ياختي ماينفعش ... وبلاش المش أبو دود ده .. ابقي بس افتكري اختك بصحن قشطة وقسط لبن طازه .. أبِر بيها جنتي الهفتانة.

- حاضر.. عيوني إلك يا بنت أبوي .. هبعتلك ماعون جِشْطه توا .. وسَطل اللبن يوماتي أمات نحلب الجاموسة .. عارفاكي تحبي تدلعي بوجك.

- بوجك؟!.. اسمها بقك يا وليه.

صوت الشيخ طه يستنجد بأم العربي من تحت الشباك:

يا ست نورا.. يا ام العربي .. سايق عليكي النبي تجي حالًا .. أم العيال توفاها الله...

- يا مصيبتي يا مصيبتي .. قلت ماتت؟! .يا حبيبتي ياختي.. ربنا رَيَّحِك من العذاب .. يا لهوي يا ولاد ع الدنيا ..الواحد يقعد يطحن فيها.. وفِي الآخر يتفقلس.. لا حول ولا قوة إلا بالله الجنة ونعيمها يا ام سووكا.. الله يرحمها ويحسن اليها .. هلبس ونازلة حالا .. اسبق انت وانا هحصلك .. ولا اقولك.. استناني اخدك في ايدي بدل ما تقع على بوزك وانت ماشي وتبقى جنازتين.

- منتظرك يا أميرة ..جزاكي الله خير.

ماتت من كانت عيناه ليل نهار، ماتت من انجبت له الحنان ثلاثة أضعاف، كل واحدة منهن قالت ... أبي أنا فخورة بك وأنت البصير وأنا نور عينيك، لا تقلق يا أبتاه رُزِقت الحلال، وربيتني منه وفيه، فلا تقلق بعد ما أنجبتنا.

المشهد جدًا حزين، سوكينة وشقيقتاها، يوزّعن واجبات المنزل، ويُجهّزن أمهم التي صارعت المرض، وها هو يصْرعها، ليوارى جسدها الطاهر مدفن

غريب في أرض غريبة، لسيدة تغرّبت عن مدينتها، كل الناس في القرية الحزن يملؤهم، والشفقة تحتويهم، على من أتوا أربعة وصاروا ثلاثة بعد أيام معجونة بالوجع.

أقبل الليل، والظلام الحزين يُخَيّم على منزل الشيخ طه، كل منزل من منازل القرية أرسل صينية من أفضل طعامهم، حيث منزل الراحلة أم سوكينة، مُشاركة طبيعية كعادتهم في المآتم، وزاد أن تجمّع رجال أهل القرية، وقد جمعوا مبلغًا لا بأس به، وضعوه في يد الشيخ طه فور الانتهاء من تلاوة الذِكر الحكيم بصوت باكي أبكى معه قلوب المُعزين.

من المُهجَّرين، بعض الأُسر التي كانت وِجْهتهم صعيد مصر، يَقْطنون في مدرسة سميت بالمعسكر، ذلك المُسمى يأتي حيث اعتبار مُهجّرين بورسعيد لاجئين، الحياة فيه صعبة، عبارة عن فصول وحمّامات مُشتركة، وما يفرج عنهم وجود فناء المدرسة، يلعب فيه الصبية والشباب ألعابهم المختلفة، التي أتوا بها من مدينتهم بورسعيد، مثل الأولى والسَبَع طوبات ونط الحبل وغيرها.

أيام أُولى عصيبة على أهل المعسكر، كشأن من هُجّروا إجباريًا من مدينة البهجة والجمال حيث الغمة والتيه في مدن مصر وقراها ونجوعها، ضمن المُهجّرين امرأة مُسنة وحيدة تُدعى "أم خليل"، تتحدث العربية بلكنة غريبة على

مسامع جيرانها، وجهها الأبيض غارق في حزن شبابها، الذي انقضى ما بين أرمينيا ومدينة بورسعيد التي فتحت لها ذراعيها بعد مذبحة الأرمن الشهيرة، وسكنت في غرفة فوق السطح بحي الإفرنج، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية بشارع محمد علي تُقدم لها الرعاية، لا تدري " أم خليل" لماذا وافقت على الذهاب إلى الصعيد، لكن يقينها أن أهل الصعيد هم أهل الشهامة والكرم.

عند وصول أم خليل المعسكر، شعرت أنها النهاية في غُربة فوق الغُربة، الأولى عندما رحلت من أرمينيا إلى بورسعيد، التي كانت وأهلها الدفء عوضها عما عانته في هجرتها عن الوطن الأول، حيث ولادتها فيه وحياة طويلة الصبا والشباب والأسرة، كانت بورسعيد وشوارعها الحنون وناسها ومشاعرهم الجيّاشة التي احتوتها، تعلّمت العربية كلغة وعادات أهل المدينة وحبهم لبلدهم وتستحق.

ما أحد يعرف من جيرانها إلّا لقبها " أم خليل"، حسبما قولها أنها تحب هذا اللقب، وكانوا يسمعونها بسعادة، لاختلاف لَكْنتها عنهم، والطعم فيها الناعم والمُهذب، مضت أيّام وأسلمت روحها إلى بارئها، وهي لازالت مجهولة للجميع، سيدات بمختلف أعمارهن يتساءلن عن ديانتها، ليتم الدفن وفق عقيدتها، خاصّة أن إحداهن رأت صليب خشبي مُعلق في غرفتها الأنيقة، بالبحث في متاعها عرف الجميع أنها "زودانا " من أرمينيا، وعلى الجميع احترام ما ماتت عليه وشيّعت جنازتها وسط أوجاع الجميع ودموع على ما آلوا إليه بعد استقرار إلى

تهجير هادمًا له ولابتسامتهم، ليحل الألم ويعتصر الحزن قلوبهم، على فراق المدينة والمرحومة " أم خليل" أرمينية المولد بورسعيدية الهوى صعيدية المدفن.

رأس البر الملاذ الوحيد الذي تركّز فيه المُهجَّرون من بورسعيد الحزينة لفراق ساكنيها الطيبين، هذا التركيز جعل الألفة بينهم سهلة، فلا غرابة على الأقل من لهجة بورسعيد التي بطعم الزلابية، بينما الأمر يختلف بمدن الصعيد والدلتا الذين هُجِّر إليها ذويهم، لصبح المُهجَّرون فيها نشاز عن أصحاب المدينة.

بورسعيد مدينة شابة سواعدها شبابها الواعي والذى تميّز بالنخوة والشهامة، خرجوا من مدينتهم ببعض العادات، منها الغيرة على بنات الشارع من أي غريب عنه، حتى وإن كان من المدينة، فيعطون لأنفسهم الحق في الاقتتال عندما يجدون هذا الغريب قد يقتحم عليهم عرينهم لمعاكسة فتاة اعتبروها أخت لهم، لذا كانوا يستقلون أتوبيس يوميًا يقلهم مجانًا فتيات وفتيان، من رأس البر إلى القاهرة لحضور محاضراتهم بالجامعات والعودة سويًا، وكل فتاة قد أوصت عليها أُمها شابًا يرعاها منذ قيام الأتوبيس حتى عودتهم إلى مدينة رأس البر، تجمُّع هؤلاء الشباب كان متنوعًا في كلياتهم، منهم الطب والهندسة والفنية العسكرية وغيرها من الكليات في أنحاء القاهرة العامرة.

فاجعة هزّت أرجاء الوطن .. بل الأحرى هزّت كل ضمائر الإنسانية، قد نعلم أن الإنسان قد يكون طماعًا في مال أو في أرض، لكن في نزيف دماء أطفال أبرياء بخِسّة وتشفّي، بعد رؤية جثث ثلاثين طفلاً، يُقتلون بدم بارد وهم يكتبون على السبورة " الله محبة "، إضافة إلى أوجاع خمسين طفلاً مُصاب وأحدَ عشرَ عاملاً بالمدرسة المنكوبة، تلك مظاهر النذالة واللا إنسانية، إنها الغارة الجوية على مدرسة بحر البقر الابتدائية مركز الحسينية بالشرقية، اليوم الثامن من مارس عام سبعون، ردود فعل صعبة الوصف في نفوس المُهجّرين خاصةً وشعب مصر عامةً.

ذلك الحادث الأليم عاد بذكريات أليمة إلى أذهان من هُجِّروا قسرًا من بورسعيد، ضرب سوق السمك وشارع دمنهور ووابور المياه وفندق هيلتون ومناطق أخرى غيرهم، بالغارات الجوية قبيل هجرتهم، ولملمة الجثث والأشلاء من أرض تلك المناطق، وكل الضحايا مدنيون لا ذنب لهم ببعدهم عن مناطق الحرب وجبهتها، ظنًا منهم أنهم آمنون في بيوتهم وأعمالهم، تتكرر هذه الأعمال والسفالة فيها في أذهان أهل بورسعيد، والذين رحلوا عنها إلى داخل البلاد بعيدًا عن مرمى مدافع العدو الغاشم.

ذهب التلاميذ إلى مدرستهم في مرح، مرتدين مرايل، يحدوهم الأمل وبسمة بريئة، وهم لا يعلمون أنها أكفانهم، ليذهب أولياء الأمور ليجدوا أطفالهم تناثرت

لحوم أبدانهم فوق مقاعد وأرضية الفصول الدراسية، من غارة بطائرات الفانتوم أمريكية الصنع، يقودها طيارون إسرائيليون، ما عرفوا للرحمة عنوان، قلوبهم غُلْف، ساء ما فعلوا ويفعلون.

كان لمحافظة الدقهلية خاصةً المنصورة وما حولها، نصيب في استقبال المُهجَّرين من بورسعيد، نماذج عديدة من الأُسر، منها عائلة "عم إسماعيل"، الرجل الطيب حافظ القرآن الكريم، ارتضى ب" كفر البدماص" مقرًا لهجرته وأسرتهن والذي كان يعتمد على زوجته صاحبة الشخصية القوية التي استمدتها من أمها أم يوسف، تلك المرأة التي وقت المحن والفرح أيضًا تعادل رجال، كان للعم إسماعيل خمسةُ أولاد، منهم بنتان وثلاثة ذكور، أكبرهم يحمل لقب "بوسيا" والاسم عبد العزيز، يجيد عمل المقالب ومهارة الخروج من المصائب التي يفعلها على مدار الساعة، يليه من يحمل لقب "العفريت"، يتضح من الاسم مدى الشقاوة التي يمارسها دون تردد، وأيًا كان رد الفعل من ضرب وسحل، والاسم محمد، بينما الثالث يحمل لقب "الطَّيب"، وبالفعل كان كذلك.

أراد الابن الأكبر من الذكور الزواج من فتاة أُعجب بها، وقد شاهدها أكثر من مرة وسط حقول زراعة الخضروات والفاكهة، التي عمل بها أثناء أجازة الصيف الدراسية، فهي فتاة جميلة من أسرة ريفية بسيطة، وفتيات المنصورة يتمتعن

بجمال المُحَيّا والقوام أيضًا، تكلفة الزواج غاية البساطة، فالأمر لن يتعدى فراش النوم وبعض احتياجات العروس الخاصة، ومنزل العريس يضم العروسين دون إضافة تكلفة استئجار منزل لهم، لذا أقدم على الزواج دون تردد، وموافقة الأم تكفي، فهي المُخطط والمدبر للأمور الحياتية للأسرة.

تم الزواج، فلا معوقات فيه، وتصبح أول زيجة في "كفر البدماص" المنصورة دقهلية في ليلة قمرية، اختلطت فيها الاحتفاليه بأغاني السمسمية بالأغاني الشعبية لأهل الريف، وما هي إلا أيام ويتقدم شقيق العروس للزواج من شقيقة العريس البورسعيدي، ويسمي بين الأسر البسيطة زواج البدل.

وهنا يبدأ دق أول مسمار في الاختلاط ، بالزواج بين المُهجَرين من بورسعيد وأهل البلدة الذين هُجِّروا إليها، ليتشكل فيما بعد جيل التهجين بعد العودة من التهجير.

الأسكندرية ماريا، ريحة بحرها وجمال دورانه مع شوارعها المنتظمة والمائلة نحو البحر مع سماع لهجة الأسكندرانية الحلوه، راقت لعائلة ام صاصا وعوضتهم بعض الشيء عن جميلة المدن وجوهرتها المتلألئة صيف شتاء بورسعيد، خاصةً أن أبو صاصا وجد عمل بالميناء، وجد فيه ذاته ماديًا ومعنويًا، أما ليزا قررت بعد دراسة جدوي سريعة، فتح مطعم أسماك في بحري، يديره

صاصا وكل الثقة فيه، أما ست الكل أم صاصا، لا يشغلها شاغل عن ابنتها بطة التي افترقت عنها شهورًا لم تراها فيها، تؤنب نفسها ومن معها، كيف لهم نسيان إعطاء بطة وزوجها عنوانهم الجديد في كامب شيزار.

آذان الظهر ينتهي وتبدأ الدعاء لأسرة ابنتها بطة، وتنتابها موجة بكاء غزيرة مع نحيب متقطع، يهرع ابنها صاصا ويأخذها فى حضنه ويقول:

- مالك يامّه فيه ايه ؟ ايه اللي تاعبك قوليلي؟

- يابني مرار في حلقي من شهور.. نفسي اشوف اختك بطه واطّمن عليها .. وانتم حاطين ايديكم في ميه ساقعه ولا على بالكم...

- طب والنبي تهدي ..وربنا يحلها من عنده .. والمصحف الشريف لانزل راس البر وما أرجع إلا ما اعتر عليها.. وكمان بقت اخدك ليها .. بس اهدي وانا اتكتك و اشوف هعمل ايه .... وربنا اكيد هيدلني عليهم، يعني راس البر والا اتينا!! اللي كانت قدها سبعمية مرة...

- ربنا يجبر بخاطرك يا صاصا يا بن بطنى .. هقولك يا صاصا .. بلاش تروح تلوش في راس البر .. انت تروح لقرايب ميمي في دمياط .. أكيد زارهم وزاروه وأكيد عارفين مكانه.

يقفز صاصا فرحًا بالفكرة وبصوت مُرتفع:

- يا سلام ع الدماغ التمرية والسمنية وحب العزيز .. هو ده الطريق السهل فعلًا

وربنا المعبود .. ازاي دماغي ماجبتش الفكره ديت .. يا حلاوتك يا ام صاصا .. هاتي بقت بوسه من خد الجميل يا حلاوة...

- بس بقي بلاش بكش ياوله .. فكرتني بخد الجميل .. حلاوه نيفه تعالى دوق، مصاصة يا عسلية.

- لحقتي تنسي "زبدة وجبنة و عجوة يا غني يا رب..."

- بورسعيد وحشاني يا صاصا قوي .. نفسي اروح بيتي (بكاء حار) ..وربنا ده حرام ..الغالبين علينا مش عارفين نشوفهم...

- يامّه حرام عليكي نفسك .. بطة اختي .. ويومين تكون في حضنك وربنا يقويني .. أما بورسعيد عايزه تصريح م الجيش.. وسبب الزيارة وحدوته كبيرة.. دا حتى المستبقين هناك برضك شوفت ليهم كارنيهات ميقدروش يدخلوها من غيرها ..ربنا يقرَّب البعيد يامّه.

- يارب يا بني .. ويهد الإسرائيليين هدة قوية من عنده .. وينصر عبد الناصر عليهم قادر يا كريم.

شهور مضت على وفاة زوجة الشيخ طه وأم سوكينة زوجة العربي، كان لأم الكوز بصمة التخفيف على أسرتها من أوجاع الفراق التي ألمَّت بهم، ساعدتها في ذلك سوكينة، التي كانت توزع وقتها ومجهودها بين منزل حماتها ومنزل أبيها.

انتهزت أم العربي (الكوز سابّقا)، كل الفرص في أداء الواجب تجاه أسرة الشيخ طه، والتي شعرت معهم أنهم ينتمون إليها، وهذا شجّع سوكينة للحوار معها:

- جزاكي الله خيرا يا أمي .. على ما قدمت يداكي من أعمال كلها خير ومودة تجاه أبي وأخوتي، وللحق أقول .....

أم العربي منفعلة ومقاطعة:

- انتي يابت هتخطبي ؟! ارحميني بقت من النحوي بتاعك ده .. ولا تقولي الحق ولا المستحق .. عايزه تقولى حاجه ادخلي على طول من غير ماتسمي .. انتي عايزه مرارة فيل وأنا يدوبك مرارة غزال صغنون هيئ هيئ هيئو(ضحكة ضفدعه شافت رجليها ناشفة).

سوكينة تجاملها وتضحك:

- كخ كخ كخ ..ورب العزة انتي غزال فعلًا.. وروحك بريئة زي كروان ترعة البلد كخ كخ كخ...

أم العربي بسعادة:

- يا بت ما انتي بتعرفي تألّسي أهو .. خوشي بقى في الموضوع جعزتيني على نفسي.

بصوت هادي حذر جدا:

- أبي الشيخ طه يريدك زوجة له.

- (صرخة) يالهوي عليكي يا فقرية.. قولى تاني كده؟

- اقول ان أبي يريدك زوجة مباركة له يجمعكم الله في الخير .. ما رأيك يا عروس وزوجة أبي وأم طيبة لنا؟

تاهت أم الكوز وبهدوء الحالمة:

- قولتي عروسة؟.. كخ كخ كخ...

طرق شديد على الباب تصرخ أم العربي:

- مين الاهبل اللي بيخبط كده ده؟ .. هو انت بتخبط على زريبة يا وله.

الطارق:

- أنا العربي يامّه ...افتحي بسرعة... جاي اجازه قصيرة... هتخلص على ما تتمخطري.

أم الكوز تقفز فرحة وتصرخ:

- يا حبيبي يا عربي يا ضنايا .. (ثم تهمس لسوكينة):

كتمي ع الموضوع دلوقتي .. اوعي تتسجري وتفتحيه قدَّام العربي احسن يطلقك سبع طلقات .. ويخلي عيشتي طين.. وابقى عانس زيك وانا لسه في عز شبابي هيئ هيئ هيئ...

الفصل الثامن

المذيع:

- أيها الإخوة المواطنون .. السيد /أنور السادات نائب رئيس الجمهورية يتحدث إليكم .

أنور السادات في صوت مكلوم هادئ:

فقدت الجمهورية العربية المُتحدة والأمة العربية والإنسانيةُ كُلها رجلًا من أغنى الرجال، رجلًا من أغلى الرجال ومن أشجع الرجال وأخلص الرجال ...هو الرئيس جمال عبد الناصر، الذي جاد بأنفاسه الأخيرة في الساعة السادسة والربع من مساء اليوم الإثنين السابع والعشرين من شهر رجب لعام١٣٩٠، الموافق الثامن والعشرين من شهر سبتمبر لعام١٩٧٠.

ليس هناك كلمات تكفي عزاءً في جمال عبد الناصر، إن الشئ الوحيد الذي يمكن أن يفي بحقه وبقدره، هو أن تقف الأمةُ العربية الآن كُلها وقفةً صامدةً، شُجاعة قادرة، حتى تحقق النصر الذي عاش واستشهد من أجله ابن مصر العظيم

وبطل هذه الأمة ورجلها وقائدها.

" يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي" صدق الله العظيم.

بكت جدران منازل المُهجّرين في كل مدن شتات هِجرتهم الأليمة، يوم الإثنين الحزين عليهم دون استثناء، صرخ الأطفال قبل الكبار على رجلٍ كانوا جميعًا يعتبرونه الأب لهم ولمدينتهم، والذي كان حريصًا كل عام على مشاركتهم احتفال عيد النصر، الذي اعتبره عيد قومي للمدينة وعيد لكل مصر.

صرخات تهز كل الشرفات والشوارع فور البيان الحزين، بفقد أب حنون، عاش في وجدانهم منذ العدوان الثلاثي الغاشم على مدينتهم، التي شهدت إعمار في كل شبر فيها بعد انتهاء الحرب لن تشهده حتى زوال أجيال مهما كان تعاقبها، تحمَّل شعب المدينة المِحن منذ النكسة، يليها التهجير القسري، وأتت فجيعة فقدانه لتقضي على ما تبقى فيهم من صبر وعزيمة، فانهارت القلوب تذرُف الدموع على هذا الزعيم الذي لن يتكرر، ولن يأتي التاريخ بمثله يذكر مدينتهم في خطاباته، ويُمَجِّد بطولات أهلها، ومن وجهة نظرهم لن تأتي مصر لمدة قرون قادمة في تاريخها وتاريخ الأمة العربية قاطبة ولن تجود بمثله زعيمًا.

باتوا جميعًا ليلة حُزن وألم، أغلبهم ما استطاع غلق جفونه انتظارًا للغد لمشاهدة جنازة الوداع، يومٌ توقفت فيه الحياة في أنحاء البلاد، برغم أن القاهرة هي مكان

تشييع الجثمان وسفر أتوبيسات من مدن التهجير المختلفة تحمل البعض، إلّا أن البعض الآخر في كل مدينة أتوا بنعوش فارغة كرمز، وساروا في جنازات مهيبة نساءً ورجالًا وأطفالًا، ينادون من قلوبهم الدامية تعقبها صراخ حناجر النساء الملتهبة ودموع الرجال الساخنة قائلين في ندائهم:

تسعة وعشرة أيّدناك ... ليلة الإسراء ودّعناك

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين الوداع

في هذا المشهد حالك السواد، السيدات وقد اتَّشحن بالسواد، يرددون كلمات تعبر عمّا يعتمل في صدورهم من طعنات لفراق الزعيم ناصر.

أبونا مات ... أبو خالد مات ... ياحبيبنا ... ليه سايبنا

مر عامان على التهجير الإجباري بالقرار الجمهوري لأهالي المدينة وإخلائها، الكثير هُجِّروا والقليل اُستبقوا فيها بعد تهجير عائلاتهم، يحصلون كل شهر على إجازة ١٥يوم، يسافرون فيها حيث إقامة عائلاتهم، وال١٥يوم الأخرى متواجدين في المدينة كلاً في عمله، وانتظاره للغارات الجوية الإسرائيلية التي ما انقطعت فوق رءوسهم مُهددة لحياتهم كل ثانية، فتفقدان عائل الأسرة نصف شهر من كل شهر، صنع بعض التفكك والانحلال، يصل إلي سلوكيات بغيضة بين صفوف

للمُهجّرين المستبقي عائلهم في المدينة، وزاد من عبء المرأة البورسعيدية في تربية أولادها وحدها في غياب الأب، الذي يأتي ضيفاً على أسرته، وسرعان ما تنتهي إجازته ويرحل عائدًا إلى بورسعيد.

فقد الكثير من المُهجَّرين الأمل في العودة، فبدأ معظمهم التّأقلم في معيشتهم، لدرجة أن بعضهم حاول إتقان لهجة مدينة المَهجر، حتى لا يبدو غريبًا أثناء الحديث مع مواطنيها، وبحث معظمهم عن عمل لمواجهة أعباء الحياة في مدن هجرتهم، ساعدت الأمهات بالكثير في تحمل أعباء المعيشة في أعمال من منازلهم، كتربية الدواجن فوق سطوح العشش، وفي حدائق المنازل خاصةً في مدينة رأس البر، وتنتشر هذه الظاهرة فترى أن البط يسعى بحرية في كل أنحاء المدينة التي أطلقوا عليها " رأس البط".

تزداد الزيجات، وهذا أمر طبيعي بعد إطالة أمد التهجير، فنجد من اقترن بزوجة من أبناء بورسعيد المُهجّرين والزوج من مدينة إقامة المُهجّرين والعكس، اقتران مُهجّر بورسعيدي بزوجة موطنها مدينة التهجير، هذا أدى إلى أن اختلطت العادات والتقاليد وأيضًا اللهجات، وظهر هذا جليًا فيمن كانت هجرتهم في الدلتا والصعيد، ليتضح أثر ذلك عند عودتهم إن لم يكن فيهم من قرّر الإقامة الأبدية في مدينة أو قرية هجرته وألا يعود إذا كانت هناك عودة.

حاجة بعض العائلات لمورد رزق يُعينهم على الحياة وتكاليفها، حيث معونات الشئون الإجتماعية الشهرية التي لا تكفيهم مع الذل المبين حين الصرف، جعلتهم لا يهتمون بالتعليم كما يجب، وآثر البعض الاكتفاء بالمؤهلات المتوسطة لأبنائهم وأنهم على ذلك مُجْبرين، أما من تحامل على احتياجاته بالحرمان، فلح في تعليم أبنائه خير تعليم، في حين الطبقة الوسطى اهتمت بتعليم أولادها بشكل جيد وانتهزت فرصة بعض استثناءات المُهجَّرين، فلا علاقة لهم بصرف إعانات الشئون الاجتماعية وذل النفس والقهر لها.

اختيار أم الكوز موطن أجدادها والعائلة عامةً، لتكون لها إقامة في التهجير، خفّفت عنها بعض من أوجاع الغربة عن مدينة البهجة والجمال، خاصةً المعيشة في كنف أهل يتصفون بالجود والكرم جعل كلمة ضائقة وعوز ليست في قاموس معيشتها.

الدنيا لا تساع فرحتها بلقاء ولدها العربي المُجنّد، والذي حصل على إجازة ثلاثة أيام تكررت كل شهر تقريبًا، سرعان ما تنتهي سويعاتها التي يقضيها مع أمه وزوجته وطفله روءه الذي أصبح يحاوره ويجادله ويسعده حين يستمع إليه وهو يتلو عليه قصار سور القرآن الكريم، فالأم سوكينة والجد لأمه الشيخ طه.

جلس العربي في حُضن أمه، التي تعمل كل ما في وسعها في تلبية احتياجاته دون طلب منه.

- وحشاني والله يامّه ... يااااه بالليل وانا واقف خدمة في الكتيبة اسرح فيكم واقول امتى الحرب تخلص واجي اقعد وسطيكم وأربي ابني ... يااااه يامّه لو تشوفينا في التدريب نصعب على الكافر .. حتى الظباط طالع عنيهم زينا عشان نُعْبُر ونحرر أرضنا اللي سرقوها مننا ولاد (....) على سهوه ... وراحت مننا قضا .. وربنا المعبود نفسي اروح امسك أي عسكري اسرائيلي من زمارة رقبته وما أسيبها إلّا لمّا تصفّر زي القطر لما يدخل المحطة .. نسيت اقولك يامّه..انا اترقيت وبقيت " أومباشه " قد الدنيا، بس برضك بطلع خدمة .. حاجه تجن الجن.

- فضفض لامك يا عربي .. بحبح وقول اللي في صدرك بدل بعد الشر ماتطق وتجيلك سكتة .. عارف يا وله ياعربي .. اني حاسه ان الجيش غيّرك وبقيت حتة سمنية على قرطاس تمّرية .. تصدّق نفسي فيهم أكابني بتوحم .. آه فكرتني صحيح مش مراتك عايزاني أوافق اني اتجوز ابوها عمك الشيخ طه .. عشان اني وحدانية وهو وحداني .. قولتلها اوعي تجيبي سيرة للعربي أحسن يسوّد عيشتنا .. أتاريها البت السهون راحت فتنت وفتشت السر.

العربي فهم ميول أمه نحو الموافقة وبهدوء: طب انتي رأيك ايه يا وحدانية؟..

سووكا ماتخبيش عليّا حاجة .. وفتت لي وعايزاني أوافق .. وقالتلي انك قايمة معاهم بالواجب من مجاميعه بتشكر فيكى...

- الله يحرقك يا سووكة .. بقي كده تجرّسيني يا بنت الشيخ المكرمش!! .. أما اشوفك هوّلع فيكي بجاز وسخ.

- يامّه على مهلك .. قوليلي بقت انتي عايزه ايه ..والله عايزك مبسوطة .. يلّا قولي بقت.

صمت وخجل منها طبيعي ومُصْطنع ونظرة بعيدة عن العربي.

العربي لم يفهم كعادته:

- ما تقولي رأيك بقت يامّه.

- ياوله ماني ساكته اهو .. ماتحرجنيش بقت يخيّبك يا عربي.

- خلاص يا عروسة اكلم اخويا روءه في التلفون واقوله ... وكمان اروح ازور خالي يونس ربنا يشفيه ويرجّعله عقله بعد اللي حصل له في اليمن.. يمكن يفوق على حِسّك.

- إلهي يستر عرضك زي ما هتسترني وابقي جوزة بدل ما ابقى وحدانية .. هئ هئ هئ (ضحكة ضفدعة تقفز أول مرة في بركة مية).

العربي رآها طفلة لأول مرة، بحنان يُطَبطِب عليها ويقول:

- وربنا انتى ست أنتيكا.. كنت فاكرك ملوعة وبورم طلعتي خورءة مبلوله هاها.

- خلاص يا وله .. بس والمصحف اني ما ناسية المرحوم ابوك وتمرت فيّا العشرة ودلعه ليّا اللي كان بالهبل .. بس بقت عشان دخلتي على بيت الشيخ كتير.. خايفه الناس تجيب في سيرتي.

العربي فهم هذه المرة وقال في استهبال:

- قطع لسان اللي يجيب سيرتك في حاجه وحشه يا نواره.. هقوم بقت اروح اعمل اللي فطّمتك عليه.

أم صاصا تغيّرت نفسيتها تماما للأفضل، بعدما نفّذ صاصا وعده لها في العثور على أسرة وحيدتها الحبيبة "بطة "، وتبادل الزيارات، وما مرَّ شهر إلّا ويلتقيان، يعوضان بعض مشاعر الاشتياق الكامن في قلبيهما، بعدما كان يجمعهما منزل واحد في مدينة النفوس الطيبة، هذه المرة بطة في زيارة أمها حيث إقامتها منذ التّهجير في منزل ليزا بالأسكندرية، والفرحة بوجود بطة والرزه الابن خفيف الظل، والذي أصبح طالبًا بالمرحلة الإعدادية، مع الصغيرة "روحية" ابنتها، وانشغال ميمي بعمله في دمياط.

ليزا في سعادة بالغة تقول:

- وحشاني كتير يا بطتي .. وانت يا رزه.. فاكر لما كنت اقول عليك "بوزه" هيئ هيئ .. بعد إذن مامي صاصي ننزل اخر النهار نروح منشية ومحطة رمل

وتدخل سينما.. ليز عرفت يا بطة كل اسكندرية حتى عمود السواري في كوم شوكافة.

أم صاصا سعيدة بالألفة بين ابنتها بطة وليزا زوجة وحيدها صاصا، تنظر بحب نحو ليزا:

- صحيح يا ليزا عشان يا بنتي صاصا مشغول في مطعم السمك .. ربنا يوسع عليكوا ... البركه فيكي بقت تعملي الواجب مع بطة مكانه .. وانا والله على عيني انتو عارفين الروماتيزم الحمد لله شل حركتي.

- ربنا يشفيكي يآمه .

- اروح اجيب كريم ادهن لك مامي صاصي.

- ربنا يخليكوا ليا حبايبي... مش حاسه بوجع في رجليا لما بشوفكم قصاد عينيا.

- قومي بطه معايا مطبخ نعمل غدا قبل صاصي وبابي يوصلوا، انا عامله كوارع وكرشه بحمص، مامي صاصا علمت انا أكل ده، انا بقيت مصري يا بطة خالص وممكن اتكلم كلام اسكندراني واقول أيوووووه يا جدعان.

ضحكة رنانة انطلقت من بطه وضحكة من القلب والروح لأم صاصا.

يأتي شهر رمضان الكريم هذا العام نهاية شهر نوفمبر، لتزداد قسوة أيامه على المُهجّرين الذين تركوا عادات تميّزوا بها في مدينتهم، وكانت لهم متعة الاحتفال بقدومه، يستعدون قبل حلوله بنحو الشهر، أما الآن ما شعروا بدايته ولا

حتى استعدوا له كما كانوا من قبل.

مدينة رأس البر الوحيدة دون باقي مدن مصر، التي حافظت نوعًا ما على تلك العادات، كونها تضم البورسعيدية في حضن عششها الأنيقة التي ترقى إلى مسمى فيلات، أهم هذه العادات فطور اليوم الأول ذكر البط المحشي بالمرتة مع صينية " الأممة "، أو "الجلاش" حسب مُسمى كل أسرة، لكن يبقى ذكر البط عريس المائدة المُنتظرة انطلاق آذان المغرب، والأمر هنا سهل وغير مُكلف للجميع، فأصبحت البيوت تَضُج بصوت البط القابع للتربية في المنازل، فلا غرابة أن تسمى "رأس البط".

ضمن هذه العائلات المحظوظة، كانت أسرة ميمي "أبو الرزة وروحية"، وزوج بطة الزوجة الحنون ست البيت تربية أم صاصا خلقًا وعملًا، أعدَّت مائدة رمضان كما كانت تفعل في منزل أم صاصا في الشارع الطيب بالمدينة الطيبة وتقول لمن حولها أثناء الفطار:

- كل سنه وانت طيب يا ميمي .. بعودة الأيام ..وربنا يفتح عليك من خيره ويسترك ويديك الصحه ياخويا .. وتشوف اولادك احسن عيال في الدنيا.

- وانتي بخير وصحه يا وردة حياتنا .. وربنا ما يحرمنا منك ولا من عمايلك .. بس ايه الحلاوه دي والطعامه دي .. عاشت ايديكي يا بطتي .. دا انتي غلبتي امك في الطبيخ...

- فشر ام صاصا محدش يغلبها ابدا.. يا ترى عامله ايه يامّه دلوقتي .. ابقى ياخويا قدّم لنا علي تليفون نكلمهم .. انت ما بتمدش ايدك ع البط ليه يا رزه يا حبيبي؟ مش عاجبك الأكل!!.. دانت يا روحي صايم طول النهار .. خد الفخد ده انت بتحب الفخد ... يلا يا رزه بقيت راجل.

الرزه بانفعال:

- كفايه بقى يا ماما ..معنتيش تقوليلي رزه تاني لو سمحتي .. العيال في شارع ٥٣ قعدوا يألسوا عليا .. ويقولوا انت بقت رزه ولما تستوي تبقى "حكاكه" في قعر الحله .. أو تشيط ونحط تحتك شياطه .. بقيت مألسه بينهم .. دا انا حتى نسيت اسمي الحقيقي (يبكي بمرارة).

ميمي لم يُقَدِّر مشاعر ولده عندما تنابز باللقب أقرانه وقال:

- طب روَّق بقى يا عم الرز والعدس ها ها ها ...

- ماشي ..والله ما اني آكل .. شبعت خلاص .. خلاص خلاص...

تتفعل بطه وتقول لميمي:

- خلاص ..كده مبسوط عكننت عليه في يوم مفترج زي دوت.. كمِّل انت فطارك وانا هروح اصالحه .. (تنادي على ولدها).. زكريا يا زكريا يا زيكو.. تعالي يا احلى زكريا في الدنيا .. والّا اقولك .. خليك يابو الزيك نجيب الأكل عندك في الفَسَحَه .. نفطر ونتفرج على الفوازير مع بعض.

ميمي في سُخرية:

- أبو الزيك؟ .. اه الزيك الرومي ها هاااه .. أو الزيك الشركسي..(وأخذ يغني).. الزيك بيدَّن كوكو كوكو في الفجرية .. يالّا بينا على باب الله يا صنايعية .. دلَّعي ابنك وبوظيه يا بهيه ها ها هاااو...

باقي المّهجَّرين في ربوع المدن والقرى المنتشرة في الدلتا والصعيد الأمر يختلف، إمّا لضيق ذات اليد أو ليس هناك تشجيع على إتمام هذه العادة والبيوت فرادى، فتناسوا عاداتهم وتقبّلوا دون دراية بعادات المدن المقيمين فيها.

ويبقى الحلم قائمًا ليس في دكر البط فحسب، لكن في عرقسوس عيسى ومخلل شارع الدقهليه وكسرى، جبنه وزيتون العيسوي في الروضة، ووحوي يا وحوي، والفانوس اللي معلّق بالتراسينة، سبيل الميه على أورنة الشارع، الكحك المضفر ومتغطي بالسمسم في فرن الحميدي وشارع المنيا، صواني القطايف والكُنافة ولُقمة القاضي في كل شارع، ومدفع رمضان قدّام جامع صالح سليم، وكوريا المسحراتي، صلاة التراويح في الجامع العباسي، صلاة الفجر في جامع بورفؤاد الكبير.

كل من قضى رمضان خارج المدينة هاجر واغترب عنها، عاش طقوسها برغم ألم البعاد ومرارة الغربة، فهي مدينة عاشت فيهم وامتلكت جوارحهم، ولم

يستطع الزمان ولا المكان ان يمحو طعم ذكريات صنعت من خد الجميل والحلاوة النيفه وكذلك من "الزبدة والجبنة والعجوة" يا غني يارب.

****

الفصل التاسع

أحبَّ العربي "الكوز" أن يتخلى عن أنانيته تجاه أمه، ويعوضها بعض من معاناتها التي استمرَّت نحو العشرين عامًا فيها مرارة الوحدة، هذا الشعور بدا يترسَّخ فيه بعدما تزوج، وازداد ترسّخه حين أنجب ولده الأول، هنا أيقن معنى وقيمة الوالدين، فهي كانت له الأب والأم معًا بعدما ترمَّلت، هاتف أخيه الأكبر فاروق بضرورة موافقته على زواج أمهما بالشيخ طه، كجزء يسير من رد الجميل لها، وأبلغه بأن عليه الحضور فورًا لإتمام الزواج، وهو في أجازة باقي عليها ٢٤ ساعة بحسابات جيشنا الصامد والمنتظر لحظة الخلاص والأخذ بالثأر.

توجه العربي بصحبة سوكينة وابنهما إلى زوج الأم المنتظر يوصيه بأمه خيرًا وقال :

- شوف يا عم الشيخ طه .. انا عارف انك راجل بتعرف ربنا .. بس ساعات ليك شطحات تجن الجن ..عشان كده جايلك اقولك تحط أمي في عينيك .. وان زعّلتها

هنط في كرشك .. متزعلش من كلامي ..انا عارفها هبوشه وساعات عصبيه بس جواها عيله صغننه عندها اربع خمس سنين .. واسأل سوكا بنتك عليها اللي عرفت طباعها وبتلاعبها ع الشناكل.

سوكينه وأبيها يضحكان، ثم يبدأ الشيخ طه بسم الله ليتحدث:

- الحقيقة يا عربي يا ولدي انا .....

يقاطعه العربي بحدة ويقول :

- ثابت .. انا لسه مخلصتش كلامي يا شيخنا، اتعلِم بقى الانضباط.

الشيخ طه في غرابة:

- ثابت ايه وانضباط ايه يابني .. انت فاكر نفسك في الكتيبة؟ .. ومع ذلك اتفضل يا عمي العربي هيئ هيئ هيئو...

العربي بجدية غير مُهتم بما سمع وأردف يقول:

- انت عارف انا وأخويا ملناش غيرها.. يعني اللي بيجي عليها اشرّحه .. لو شايف نفسك قادر تخليها مبسوطه وتتحملها قولي نقرا الفاتحه .. ولما بيجي الباشمهندز فاروق نقرا معاه فاتحة تانيه عشان يمكن ملحقش اشوفه وانا مسافر زي ما انت عارف .. قلت ايه يا عم الشيخ؟

- الله المستعان .. ربي أعلم كم كنت ومازلت أكِن لها مودة ومشاعر ما بعدها .. وانت تذكر هذا جيدا ونحن في حبيبتنا بورسعيد.. وسبق لي ان طلبتها منك لكنك

كنت ولد عاق ودفعت بي في بالوعة الصرف الصحي .. ولازالت الرائحة تملأ أحشائي.

- كفايه بقت حفر في اللي فات .. ويلا على بركة الله نقرا الفاتحة .. بِسْم الله الرحمن الرحيم.....

عرج العربي وأسرته الصغيرة الجميلة على منزل خالته ليقدم لها الشكر عمَّا تفعله تجاه أهل بيته .. وانتهزها فرصة لتدعيمها أمه فيما هي مُقبلة عليه .. أحضان وقبلات للجميع:

- وحشاني والله يا خالتي .. اعذريني الجيش مروق عليا من كله .. ازيك يا دكتور؟ هو انت بقيت مُجند برضك؟

- الله يسلم عُمرك يا عربي ابن الغاليه خالتي .. فعلا انا بقيت ظابط طبيب احتياطي في السرية الطبية في الدفرسوار.. قريبه جنب اسماعيليه.

- يا دين النبي ما أنا برضك هناك في كتيبة المشاة .. يلا بقت يا عم بقينا جيران ها ها .. انا مسافر الفجر الاجازه اتفرمت في ثواني.

الخاله هانم وقد أسرعت بتحضير الطعام حسب المتوفر منه والخير كثير:

- يلا بِسْم الله يا ولاد .. كنت جبتم نورا معاكم .. يلا هبقى اوديلها نايبها.. انا كده عرفت انها كانت مختفيه عشانك جيت يا عربي.

دار حوار بين الجميع نتائجه دعم هانم الكامل لشقيقتها نورا أم العربي في زواجها من الشيخ طه، وانصرف العربي سعيدًا بما حققه وعائدًا لأمه يبشرها بما فعل وقال مع الشيخ طه وخالته هانم، وطبع على رأسها قبلة حب وعرفان لما قدّمته له طوال حياته الماضية.

شراسة حروب الاستنزاف لم تتوقف من معارك على طول الجبهة، وفي العمق أيضًا تتفوق جميعها، قواتنا المسلحة التي تطورت بشكل رائع وقدرات في التسليح وبناء حائط الصواريخ والمطارات المُجهّزة، منها المطار السري في طريق المنصورة الذي أصبح محطة مواصلات يعرفها الجميع وهي السر المفضوح، انها النوايا الطيبة بلا شك.

مدينة الإسكندرية والتي احتضنت عائلة أم صاصا، حدثت بينها ألفة والعائلة التي بدأت تذوب في المجتمع السكندري جميل الطباع حلو الحديث، القدر لم يُمهل العائلة أن تستقر وجدانيًا، استيقظ أبو صاصا في فزع وولده وزوجته ليزا على صراخ عميدة المنزل أم صاصا وهي تتلوى ألمًا من صدرها وتقول:

- الحقوني يا ولاد.. صدري بيتقطع .. مش قادره اخد نفسي .. بموت يا صاصا.. بمووت يا ابو صاصا .. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

ليزا تصرخ:

- لا مامي بليز.. انتي كويس هتعيش مامي .. احنا من غيرك ولا حاجه خالص...

أسرع صاصا مرتديًا ملابسه وأبوه كذلك، وحملاها بعد تغطيتها جيدًا من برد الشتاء القارص، ونزلا بها الى الشارع واستوقفا سيارة أجرة، طلب صاصا من سائقها الذهاب لأقرب مستشفى وهي غائبة عن الوعي.

دموع ساخنة تغطي وجه صاصا وأبيه برغم محاولة كلًا منهما التماسك حتى يستطيعا العناية بالحبيبة، حضر الطبيب في قسم الملاحظة وأمر دخولها العناية المركزة حيث التوقع أنها ذبحة صدرية، وعليهم الانتظار حتى الصباح لعمل التحاليل والأشعات المطلوبة وكشف الطبيب المختص، ليس أمامه إلا المحاليل حتى الصباح.

نظرات مميتة في عيون صاصا وأبيه، لا يعبر عمّا في داخلهم الّا سيل من الدموع الجارفة، بينما هما جالسين في منطقة الانتظار، تدخل ليزا مرتجفة وتسأل بِنَفَس مُجْهد ومّتقطِّع:

- خير صاصا .. قولي بليز مامي مالها؟

- ايه اللي جابك في البرد ده بس يا ليزا .. وجايبه كمان ناصر معاكي؟

- ينفع أكون في البيت وأنتو هنا ومامي في حاله دي!!؟ .. دكتور قال ايه ؟

- قال الحاله كويسه وعايزه راحه شوية (بكاء ونحيب).

ليزا تحتضنه وتبكي معه بكاء مُر:

- انا عارفه حالة دي صعبة.. مش عارف اقول بالعربي.. لكن ربنا كريم .. ان شاء الله تبقى كويسة تيجي للبيت معانا .. بس صاصي حبيبي قول يا رب.

أشرقت الشمس والضوء منها خافت، فهي شمس الشتاء والحزن يملؤها على سيدة القلوب الراقدة في غيبوبتها، لا تدري أثر ما أصاب القلوب والنفوس حولها، إنها كيان لم يهزه حدث، القلوب حولها تئن، وما أتى إلى خيالها من قبل أن هذا الجبل الشامخ يسقط بلا مقدمات.

ليزا أسرعت نحو السنترال، تطلب بطة ابنة الحبيبة أم صاصا عن طريق هاتف الجيران، تقول لها كلمات قليلة ثم تقفل الخط حتى لا تسمع بطة نحيبها:

- بطة .. ماما تعبان قوي تعالي.

بطة تصلّبت كل جوارحها، ثم صرخت صرخة مكتومة هزَّت كيانها، هرعت إلى عشتها تصرخ في ميمي:

- يلا يا ميمي هات عربية تودينا اسكندرية دلوقتى.. هادخل البس واصحي زكريا تكون جيت.. امي في خطر يا ميمي.. استرها معاها يا رب .. يا حبيبتي يامّه.. صابرة ع اللي فيكي وانتي بتموتي كل يوم.

وصل الابن الأكبر فاروق من مدينة رأس البر حيث التهجير إلى بيت أمه نورا، ليقف بجوارها داعمًا اختيارها بالزواج من الشيخ طه، ويُنفِّذ رغبة أخيه العربي، الذي غادر إلى الكتيبة المُجنَّد فيها والقريبة من الجبهة مع العدو الصهيوني، التقى وأمه بالقبلات والأحضان مقدمًا لها التهنئة مع زوجته "هدى"، التي لم تفارق الابتسامة وجهها المكشوف في تعبيراته الممتلئة بالغرابة وربما الاستهجان من زواج حماتها في هذا العمر، لمحتها نورا مرّات لكن لم تستطع حبس ما في صدرها وقالت بمكر:

- مالك يا هدى ..شايفاكي ياختي مضروبة على قلبك .. ما تزغرطي يا بت .. انتي جايه فرح مش عزا كفا الله الشر .. والا اقولك خليكي في حوستك وقهرتك.. (ثم نادت) .. تعالي يا بت يا سووكة .. ارقعي كام زغروطة .. وروحي اندهي بنات البلد يغنوا أغنية مها صبري " كدنا العوازل".

يتدخل فاروق لتطييب خاطر أمه، وفض المشاحنة التي إن بدأت لن تنتهي:

- يامّه .. هدى تعبانه من السفر يا حبيبتي .. دي أول ما سمعت الخبر كانت هتموت من الفرحة.

- مش باين يا روءه .. يعني هي كده ميتة؟ ربنا يرحمها.. على رأي المثل "يامعزة ايه دخلك وسط معيز.. لا فيهم حبيب ليكي ولا عزيز" هيئ هييي هييي.. يلا "لأجل الورد ما كان اللسان سكت واتهد" .. يلا بقى يا سوكة خلينا

نهيص.. (أخذت تصفق وتغني وتتمايل)... ياللى ع الترعة حَوِّد ع المالح .. ماجاني النوم من ليلة امبارح.. صقف ياروءه.

فاروق يضحك ملء فيه، ثم يحتضنها وتسقط دمعة وجع على وجع أم، سنين كانت فيها تؤثره وأخيه على نفسها وإن كان بها خصاصة.

شارك أهل القرية جميعهم نورا والشيخ طه فرحتهم بالطبل والدف وغناء السيدات والبنات، وتلك كانت ترتيبات العروس بلا خجل، إنه شرع الله فكيف لنا أن نعترض!!، حتى الخال يونس أتى مسندًا على ولده مهنئًا، وكعادته وضع في يديها مبلغ من المال يساعدها على معيشتها، بل أثار حماس كل الأقارب أن يحذوا حذوه، ليدخلوا السعادة على قلب أرملة، ما ذاقتها منذ حملت جثة زوجها الراحل ووارته الثرى بقلب تحجَّرت فيه العواطف ودفنتها معها، إلا عاطفة الأمومة التي تزيد مع زيادة عمرها الحزين.

شمس النهار مالت نحو المغيب، ولطالما أشرقت على قلب امرأة دائمًا النور فيه، ما عرفت لون غير الأبيض الشفاف، تُصدّره لكل من حولها، هاهي ترقد والنور داخلها.

أتت بطة وأسرتها تلهث في طرقات المستشفى، والدموع ما جفّت منذ سماعها خبر أن أمها في حالة خطرة، تستقبلها ليزا بحضن دافئ في برد الشتاء، الحضن

بينهما يُعلن أن المعاناة واحدة والألم واحد ومصابهم بلا شك واحد، فهي أم الجميع.

أصرَّت بطة الدخول لرؤية أمها بالعناية المركزة، انهيارها جعل العطف يخترق قلوب الممرضات وسمحوا لها بالدخول دقائق، وجدت الجبل بلا حراك والأجهزة الطبية تلف جسدها الذي انهكته السنين بصبر وثبات، ازدادت حالتها انهيارًا، فأخرجوها من العنبر وهي تصرخ فيهم:

- سبوني يا ناس انام جنبها .. حبيبة عمري بتروح مني .. سبوني الله يخليكم اشبع منها ... (ذهب الجميع إليها يحدثونها عن الصبر والدعاء والتفاؤل بأن القادم فيه تحسن لحالتها).

مرَّت ساعات قليلة بطيئة كما الدهر حين ينتظره من لا حيلة له، شعر الجميع أن هناك حركة غير عادية داخل غرفة العناية المركزة، كل أفراد عائلة أم صاصا يقتربون من باب الغرفة، والقلوب تتصارع دقاتها في جنون إلى أن يأتيهم الخبر.

وفاة الغالية آسرة القلوب " أم صاصا ".

مات الحنان ووقف تدفقاً.. ماتت من أعطتها الإنسانية توكيلاً لرعاية الإنسان من حولها .. غابت شمس الحب .. ماتت لم أبناء شوارع نبيل منصور والدقهلية والغوري وشوارع الحميدي والتلاتيني ولوجينا، وتمتد أمومتها إلى شوارع الجمهورية والعروبة والترسانة ببورفؤاد وكل شبر في المدينة ..بل ماتت المدينة

ولم تعد تتحمل رؤية وجوه تغيّرت طو الملامح فيها، ولم تقوَ على سماع عُواءً بعدما كانت زئزئة ومواءً...

آخر كلامها نطق الشهادتين، ودّعت دنيا اكتظت بالقبح وبالغش والتناحر في تفاهات الأمور، وداعا طبيبة القلوب الموجوعة، وداعًا أم صاصا .. أُمي وأُمكم جميعًا.

****

الفصل العاشر

العروس (أم العربي الكوز)، شعرت أن العقل ذهب عنها وطار بلا عودة، فكيف لها أن تتزوج بعد هذا العُمر، ومن أين أتتها تلك الجرأة، فجرأتها دائمًا أقوال لا أفعال، تعود سريعًا تُطَبطب على ذاتها المضطربة مُحدِّثة نفسها:

- ما انتي عملتي اللي عليكي يا نورا ... هو يعني انتي عملتي حاجة غلط؟! ..ده جواز يا بت... وأهو راجل غلبان تلميه ويلمك تبقي عكازه .. ويبقى معاكى نَفَس تسمعيه .. تطمني شوية بدل ما تقعدي تكلمي نفسك وتتهبلي وتروحي ع الخانكة.. وبعدين يا عيني عليه وهو بيمضي ع القسيمة نطت من عينيه الدموع انا بس اللي شوفتها.. مسحها بكُم العباية بسرعة اللئيم قبل ماحد يشوفه.. فوقي يا نورا بقيتي جوزة وليكي جوز وهتسمعي منه كلام من زمان ما سمعتيه... وهو اسم النبي حارسه لسانه نحوي يهز الحيطة... باين الحيطة وقعت على دماغك يا نورا هيئ هيئ هئو.

تسمع دبيب خطوات الشيخ طه، الحافظ للطريق بعدد الخطوات ولمسات اليد

دخل الغرفة قائلًا:

- سلام الله عليكم يا زوجتنا الغالية.

نورا ترد بصوت منخفض متأني:

- عليكم السلام يا سيدنا الشيخ.

- زيجة مباركة بإذن الله .. كم للحياة من أطراف يصعب علينا الإمساك بها .. إلا أنني أحاول .. وأحيانا افشل فيها .. إلا أنني هذه المرة حققت نجاح عوضني عما فشلت فيه من قبل وما أكثره و ...

تقاطعه أم العربي بعد زفرة طويلة:

- خف شوية عليا يا طه ... وكلمني على قدي من غير ما توهني عشان أنا تايهه لوحدي وحياة ابوك.

- ها ها ها .. عندك حق يا نوارة حياتي ... أقولك سر؟ .. كاد شوقي يقتلني وإني له قاتلًا.

تصرخ نورا وتندفع مع الحسرة:

- يا لهوي مين شوقي ده اللي هيقتلك .. قولي عليه فين وانا اروح أولع فيه.. هو فاكر ان ملكش أهل .. وحياة ربنا أولع فيه بجاز .. قول يا اخويا السر اللي في قلبك وما تخافش .. فيه ايه يا راجل عمال تضحك وهتموت أجيبلك ميه.. اهدا السر الإلهي هيطلع .. يادي المصيبة يا راجل اهدا وبطل ضحك وفهمني.

الشيخ طه يحاول التماسك وبكلمات مُتقطّعة:

- يا نورا بقولك شوقي .. يعني مشتاق لك وأحن إليك وأريدك.

بصوت عالي مخنوق:

- يا نصيبتي السودا واللي جرالك يا نورا .. اتجوزتي واحد هتبقى على ايده خُلل و تربنتينه .. يا راجل لسه قايله لك ارحمني وكلامك المعووج ده .. شكلى كده مش هاطول في الجوازة دي يا طه.

يضحك ويحاول إرضائها:

- خلاص خلاص حقك عليا يا شمعة حياتي .. دانا ما صدقت يا نوارة قلب طه وسراجه ولمبة جازه ها ها ها .. تعالي جنبي يا عروس.

- اتلم شوية ده انت لسه روحك كانت بتطلع وانت بتضحك عليّا .. بعد الشر عليك يا طه.

الشيخ بنعومة:

- قربي لي قربي .. يا من أتيتي لي بعد ما الحياة جفّت وأدارت لي ظهرها وولت.

- ربنا يجعل حياتنا طرية وما تنشف ابدا قادر يا كريم .. هات ايدك على مهلك .. متبقاش شقي قوي كده يا طه .. كلامك دوخني ياااه .. انت حنيّن قوي يا طه

(صرخة مع حسرة) يا لهوووووي .. وقعت يا اخويا يا حوستي السودا .. سلامتك الف سلامة.

الشيخ طه سقط من فوق السرير، ماسكًا ذراعه الأيمن ويئن، مع شعور بألم فظيع في ذراعه والذي بدا أنه قد كُسر من أثر السقوط .. كلما اقتربت منه نورا لتساعده على النهوض يزداد الألم حتى صرخ وقال:

- الظاهر دراعي اتكسر يا نورا.. مش متحمّل .. يلّا وديني على الوحدة الصحية بسرعة..

نورا بصوت باكي:

حاضر يا طه سلامتك ياالخويا يا ريتني كنت انا .. الناس دلوقتي هاتقول جوازة فقر .. ينعل ابوهم كلهم .. قوم يا طه على مهلك ..واللي يقول يتفلق نصين ....

أخذت نورا تنادي على بنات الشيخ طه يرافقونها للوحدة الصحية بقريتهم، وأخذت تصرخ فيهم حتى خرجن لها مُسرعات.

- تعالوا معايا نشوف أبوكم ... باين عليه دراعه اتكسر لما أتخبط في الباب .. قلت له ما يسبش العكاز من ايده .. ركب دماغه وآدى آخرتها .. باين أخذ عين من حد من اللي كانوا قاعدين .. مستكترين عليه الجوازة .. جوازة الهنا...

انقسم البنات وأبيهم الذي مازال يتألم، فهو ينظر إليهم بحنان رغم الوجع...

البنات في شك لما روته زوجة أبيهم، وكلٌّ منهن تتصور ما حدث لأبيها حسب الخيال والنية، جميعهن يكْتمن ضحكة ان صرّحن بها لأزعجت صمت الليل النائم.

لمحت نورا ما يحدث منهن وقالت في عصبية مصحوبة بالحرج المستخبي:

- لمي نفسك يا بت يا هبله انتي وهي .. استنوا عليا بس بعد ما نطمن على أبوكم واعرفكم مقامكم .. اللي ما شفت واحدة فيكم مجعوزة على ابوها .. بنات عرة مبيطمرش فيها التربية .. تعالي يا مزغودة منك ليها اسندوا أبوكم م الناحية التانية...

البنات فعلن ما أُمِرن به، ومازالت الضحكات محبوسة داخل الحلوق، بينما أبيهم المُصاب أخذ جانب الحياد، وأحيانًا عدم الفهم، حتى وصل الجميع إلى الوحدة الصحية، وتم تجبيس الذراع الأيمن للشيخ، مع ترديد العروس ليلة زفافها رواية أن العريس قد اصطدم بباب الغرفة.

خَيّمت الأحزان ... واتّشحت أيّام أحِبة أم صاصا بالسواد ... كل أقوالها وأفعالها يسمعها ويراها كل منهم ... حتى الصغيرة روحية حفيدتها تبحث عنها لترتمي وحُضن الجِدة الحنون من نظراتها وقبلاتها ... الصغيرة لا تعرف معنى الموت الذي يخطف الأحبة دون استئذان... ليترك للواعي منا سواطير تذبح

الروح والمشاعر والصغير ... حيرة ونظرات بريئة حزينة شاردة وتساؤل يراها الواعي فتزداد السواطير بالنفس ذبحًا ...

في بيت العزيزة الراحلة أم صاصا، الجميع ينظر مواسيًا نفسه والآخرين، حتى المرأة الأجنبية يونانية المولد والنشأة " ليزا " زوجة ابنها، تتحرك لخدمة الجميع وتكتفي بالنظرة والدموع لا تتوقف في مُقْلتيها، قطع أبو صاصا هذه المشاهد قاهرة النفوس وقال لابنته بطة وزوجها ميمي:

- كفاية كده يا ميمي خد مراتك وولادك ورَوّحوا عشان مصالحك يابني.

تصرخ بطة باكية:

- واسيب امي لوحدها؟ مين يزورها ويونسها في نومتها .. مش كفاية انها مدفونة في الغربة .. يا حبيبتي يعني لو رجعنا بورسعيد نرجع من غيرك؟.. هو ينفع بيتنا هناك من غيرك .. وحشتيني قوي يامّه (بكاء حار) .. محدش حاسس بحرقة قلبي عليكي يا حبيبة قلبي...

ليزا تحضنها وتبكي معها وتقول:

- اطمني يا بطة .. انا كل جمعة اروح أزور مامي صاصي مع صاصا وبابي صاصا .. ومعانا ناصر اللي كل ساعة يسألني عليها وانا مش عارف اقول ايه ..

يبص لي ويبكي وحده حبيبي .. أنا حاسس بيك اختي بطة حبيبي .. لازم تمشي عشان شغل ميمي جوزك ابو زكريا .. هستناكي حبيبتي اي وقت .. بس فيه أصول انك تروح تشوف بيتك مع جوزك يا حبيبي.

ابتسم صاصا وقال وهو يمسح على رأس أمه الثانية بطة:

- كلام ليز يا بطة بقى كلام ست مصرية عارفة الأصول .. اسمعي كلامها يا بطة .. ولعلمك لو ام صاصا سامعه كلامنا هتقولك كلامهم صح (وأخذ في البكاء بصوت مخنوق).

بطة وقفت واضعة رأس شقيقها على صدرها وقالت:

- وحياة النبي ورحمة أمك الغالية تسكت .. أنا هسافر بكرة بعد الظهر لما ازورها .. بس بقى يا صاصا بلاش عياطك اللي بيدبحني....

لم تكتفِ فترة الغربة بألم التهجير ومعاناته لأهاليها، بالاغتراب عن مدينة أحبّهم وأحبّوها وما اشتموا بعد غربتهم عنها نسمات حلوة كما تعودوا فيها، يُستثنى منهم المستبقون فيها، الذين اغتربوا عن أُسرهم في شتات مدن أخرى داخل الجمهورية، بل زادت الحياة قسوة وشظف المعيشة مع معظمهم، وقسوة أكثر الوجع ليلاماً تتمثل في فراق الأحبة أثناء التهجير.

يأتي على مدينة رأس البر، يوم الجمعة الموافق (١٨ فبراير عام ٧٢) حدث

يهز شوارعها كافةً، مخترقاً كل العوائل، إما حزناً على فقدان أحد أبنائها، وقد يكونا شقيقين أو أكثر، أو قريبها أو جار، كلهم من خيرة شباب بورسعيد، جَمَعَهم أتوبيس الموت ..... شباب أتوا من رأس البر، ليتحرك بهم الأتوبيس المشؤوم من مدينة دمياط ، وأبى الموت أن يصلوا إلى القاهرة، حيث يدرسون في مُختلف جامعاتها ومعاهدها، ليختطف أرواحهم بلا مقدّمات غرقاً في "هويس كفر شكر" شديد الدوامة، فيه الموج متلاطِم كما الشلاّل الهادر، وتخلل عجلات الأتوبيس... ويسقط فيه تاركاً الفجيعة التي خلّفت مرارة ألم للقلوب وذهاب العقول.

هذا الحادث هو الأبشع والأشد وأنكى فيما خَلّفه من أحزان، عاشت ومازالت تعيش داخل نفوس أهالى الغرقى، وذكريات لن يمحوها زمن ....إلا بعد رحيل من يتذكر من ذَويهم أجمعين، وصل حد الصدمة... الدرجة التي تضع أم ثكلى جثة ابنتها الشابة أمامها وقت تسلُّمها، وتأبى أن يأخذونها ... لتدفن في مقابر العائلة ببورسعيد بعد استئذان الحاكم العسكري، لدفن جثامين شهداء العلم في مقابر المدينة المكلومة منذ النكسة، مرورًا بأيام حرب الاستنزاف التى طالت سنوات وطال معها الأسى في غُربة أهلها، ويترنّح أمل العودة فيهم، وها هم يفقدون الغوالي أيّام التهجير.

انتفضت كل أجهزة محافظة دمياط انتفاضة تتناسب مع حجم هذا الحدث الجلل، والذي كان له الأثر العظيم في النفوس وحتى الأماكن، من مدخل رأس البر حتى

اللسان وعزبة البرج ومدينة دمياط ومراكزها، بل طار الخبر لكل أنحاء الجمهورية، وقد حضر مُهجّرون من كل المحافظات يشاركون أهالي الشباب في مصابهم الأليم.

العوائل جميعها أُصابها مرار الحزن القاتم، الذي ما ترك عائلة إلا وقد اخترق قلوب أفرادها، منها عائلات (الأسمر، الإتربي، المصري، شرباص، النشار، صالح، البحراوي، الملط، الحلوجي، سرحان، العجمى، فرج، أبو الغيط، عبيدو، حسن صالح، غويبة، أبوسمرة، عبدالحفيظ، الشبكى، الجريتلي، الدسوقي، العفني، عليوة، الغندور، أبو يوسف، الشيمي، سرحان)..... وغيرهم من عائلات بورسعيديةمكلومة

وأرسلت أجهزة الدولة ممثليها، للمشاركة وعرض المساعدات المادية، والتي مهما بلغت لن تخفف لحظة ألم ذكرى مع كل شاب فقد حياته وهو يسعى لمدينة الألف مئذنة، يرجو العلم لإسعاد ذاته وأهله بينما الموت خاطفًا له منتظرا.

عاش الناجون من أتوبيس الموت حالة عذاب نفسية، شبيهة بسحب أرواحهم من أجسادهم، فكيف ينسى أحدهم صورة شقيقته التى كان يسحبها للخارج وسط تزاحم الجميع على نفس الشباك، للخروج منه والهروب من الموت المُحقق كلّما غطس الأتوبيس نحو قاع المياة، والفتاة السمراء التي وقفت جموع الناس أهالى القرية الواقعة على ضفة فرع نهر النيل، وهي مُتمسكة بفرع شجرة متدلي على

صفحة الماء، الكُل يصرخ ويُحَمسها بقولهم " يلا يا سمرا " أو " اثبتي يا سمرا " والسمراء تقاوم لطمات الماء المُنجرفة بشدة، يساعدها أنها رياضية بكلية التربية الرياضية، لو فكّر أحد الأهالي النزول للمساعدة لمات غرقًا من شدة التيار، لذا ليس أمامهم إلا تشجيع الفتاة الرياضية السمرا، إلى أن اقتربت من الشط وسحبوها وعاشت عيش الأموات، فما هرب من مُخيلتها لحظات صراع الموت والحياة.

حتى تَحرُّك جنازات شهداء العِلم، لم تَسْلم من غارات طيران العدو الآثم فوق رؤوس المشيعين أثناء تحرّكهم بسيارات الإسعاف، الحاملة للجثامين من رأس البر حتى مثواهم الأخير بمقابر مدينة بورسعيد المكلومة، مما جعل البوليس الحربي يوقف مسيرتهم مرات، حتى تنتهي الغارات الهمجية المتلاحقة، للحفاظ على أرواح أحياء شبه أموات يُشيعون أمواتًا أحياءً بأرواحهم، للدفن في مقابر مدينة ماتت.

مرت ثلاثة أعوام ثقيلة، منذ بداية التهجير القسري لأهل مدينة بورسعيد، شهدت فيها مدن الشتات داخل الجمهورية الكثير من المآسي والأحداث المؤلمة، شملت كل المدن بلا استثناء من حوادث موجعة تهدد فيها الأسباب، ولكن جمعتها أوقات الغربة عن مدينة الجمال وشوارعها الطيبة بناسها الطيبين.

ما أن جفت دموع بطة ابنة حبيبة الجميع الراحلة "أم صاصا"، إلا وفكّرت بجدّية في زيارة نورا "أم العربي" في بلدتهم، التي سمعت منها اسمها قبل التهجير، وتاهت أخبار الجميع عن الجميع ضمن مرارة الشتات، تذكرتها بتشتم فيها رائحة أم صاصا التي كانت حبيبة وغالية فكان اللقاء بصحبة الزوج الحنون ميمي وابنها الصبي زكريا وطفلتهما روحية، أحضان وبكاء وصراخ عندما علمت أم الكوز بوفاة أم صاصا وقالت:

- ادخلوا يا حبايبي يا اللي من ريحة الغالية .. ألف رحمة ونور عليكي يا ختي وحبيبة قلبي يا ام صاصا، يا ولاد والله انا مش حاسة بروحي ومش مصدقة نفسي .. يا حبايبي .. وربنا خطوة عزيزة يا غالية يا بطة وبنت المرحومة الغالية (تنادي بصوت عالي) .. يلّا يا سوكة .. هاتي روءه وتعالي سلمي على حبيبتك بطة بنت المرحومة ام صاصا.

تدخل سوكينة وقد أصابها الغم حين سمعت كلمة المرحومة، وبعد احتضانها وقبلاتها لبطة قالت:

- لها المغفرة والرحمة وحنان العلى بإذن الله تعالى .. ازي حالك يا اختي بطة الغالية وبنت الغالية أُمي المغفور لها أم صاصا؟

بطة تدارى ابتسامتها من رد فعل نورا عند حديث سوكينة الفصيح وقالت:

احنا قاعدين في راس البر والحمد لله احسن من غيرنا، بس والله مهما كان مفيش

احسن من بلدنا.

أم الكوز ترحب بميمي : خطوة عزيزة وتسلم ايديك ورجليك يا ميمي يا أصيل وايه يابني كل اللي انتوا جايبينه ده.. هو احنا اغراب عن بعض؟ دي كفاية اني شوفتكوا دي عندي بالدنيا وما فيها .. قومي يلا يا سوكينة.. جهزي الغدا وادبحي احلى حاجة عندنا عشان الغاليين .. .. يلا شهلي انتي وأخواتك على مأبوكم ييجي من صلاة العصر(نظرت نورا لبطة وميمي ثم أردفت قائلة في حرج)

- اصل انا اتجوزت الشيخ طه ابوهم بعد ما امهم ماتت... لقيته يا عيني مكسور الجناح ومالوش أهل وبناته مساكين بعد امهم... قلت ألمُهم واخد ثوابهم (تجاهلت دهشة عيون ميمي وبطة)... وأكملت شبه متماسة .. بس طلع ابن حلال بيحاول يكسب رضايا .. وأهو اخد بحسي بعد ما العربي راح الجيش اللي مش باين له نهايه .. كل شوية السادات يقول هنحارب ويطلع فنجري بوق .. عشان كده تلاقي الشيخ طه مفقوع منه ومن كلامه.

بطة أرادت تخفيف الحرج عن نورا (أم الكوز) وقالت:

- على خيرة الله يا خالتى .. طول عمر الشيخ طه طيب وأمير وكان بيحب أبويا.. وابويا لو عرف هيفرح قوي .. هابقى اقوله في التليفون او لما اروح

ازور أُمي الشهر الجاي (سقطت رغم عنها دموع ساخنة ملأت وجهها في صمت).

أم العربي أخذت تبكي وتضمها لصدرها وتقول:

- كفاية يا بطتي يا حبيبتي.. ادعيلها بالرحمة .. كانت ست من الملايكة الطاهرين.. طوب الأرض كان بيحبها واللي في ايدها مش ليها .. الله يرحمك يا ام صاصا.

لم يكن حال مصر عامةً متمثلًا في حالة اللاسلم واللاحرب مُرضيًا لمعظم أطياف الشعب المُنتظر لحظة الأخذ بالثأر من العدو الصهيوني، الذي احتلَّ الأرض، وأصبح العمق مهددًا بذراعه الطولى، المتمثلة في طيرانه منذ النكسة.

الإحباط تسلل للنفوس التي اصبح الخلاص أمامها مستحيلًا، يزيد الاحتقان منذ إعلان الرئيس السادات أن عام ٧١ هو عام الحَسْم، ثم مرّ بكآبته، وها هو يُشرف عام ٧٢ على الانتهاء، ولازال الوضع قائمًا يشوبه العجز دون حراك، مما دفع طَلبة الجامعة نحو الانتفاضات المتتالية منذ بداية العام، مطالبين الرئيس الوفاء بما وعد.

أما على صعيد من هُجِّروا من مدن المواجهة الثلاث، الذين وصل بهم الأمر حد اليأس من عودتهم إلى ديارهم التي فيها ومنها الاستقرار، بعيدًا عن أوجاع ما

خلَّفته الغُربة في مدن رافضة قلوبهم وأرواحهم التأقلم والاعتياد عليها، موت الأمل في النفوس وما تَبِعه من معاناة الاغتراب، يجعل الوجع أوجاعًا ميؤوس من زوالها.

لم يكن هذا العام منذ بدايته، إلا عام حصاد لأرواح شباب في غُربة التهجير بعيدًا عن الوطن الأصغر والحضن الآمن والدافئ بورسعيد، وينتظر الجميع عامهم القادم ٧٣ زاحفًا ببطء فوق أرواحهم المُنهكة، والريب منه وفيه قابعًا بصمت قتل كل آمال العودة والخلاص.

****

الفصل الأخير

القاهرة مُحيط مُتّسع لديه القدرة على ابتلاع كل من ينزل فيها وأطرافها ليذوب القائم والقادم، يأتي شهر رمضان المتوافق مع نهاية شهر سبتمبر وبداية شهر اكتوبر لعام ١٩٧٣، تشهد فيه القاهرة ومصر كلها أحوال مضطربة بسبب الحالة الرمادية التى طفحت على جسدها الكبير والمُنهك من آثار الهزيمة، بعض من سكان مدينة المُعِز يعبر عن الوجع والتي ألهته مصاعب الحياة التي تزداد خنقتها بارتفاع أسعار السلع، اقتصاد الحرب يتحمَّله المواطن شاء أم أبى.

من الرافضين للهزيمة، والناقمين على هذه الحالة بشدة الذي ذاق مرارتها، وكان الموت أقرب إليه من الحياة ... الأستاذ "ياسين" مدرس اللغة العربية بالمدرسة الإعدادية بنين ببورسعيد سابقًا، وشاعر انكسرت روحه وهو جندي يوم هزيمة عام ٦٧، وقد هرب العقل منه إلّا أنه ما نسى ما رأته عيناه، واستغلَّ نظرة من حوله على أنه المجنون، وأخذ يُنظم أبيات شعره معبرًا عن فئة من الشعب المصري هذه الأيام، فقد هيّأ لنفسه مكانًا على مقهى بدوران شبرا يصرخ

فيها من جوف القلب المجروح قائلًا :

خدعونا وقالوا ..... أهو نور النهار أهو جي
وعدّى النهار وراه نهار مَبنش فيه الضي
اطْلَع واخْطُب علينا واقفل عينينا قول يا خي
لو تحسوا بينا كُنتم طهرتوها وكفُّرتم كل ذنب
لإمتى هنقعد نندب .. دايمًا اقول انتم ولاد ستين .....

رمضان يحب اللمة والتجمع وقت آذان المغرب بعد صوم النهار، لذا قررت عائلة أم صاصا قضاء رمضان هذا العام في ضيافة بطة برأس البر، صاحبة الفكرة اليونانية ليزا، والتي أُصبحت بالعِشرة والإقامة إسكندرانية الطباع، فهي تحث من حولها على القيام بالواجب في مختلف المناسبات، وربما أتاها شعور أن عليها تحمُّل مسئولية الحبيب المخلص صاصا وأبيه الذي ما غابت عنه حبيبة روحه الراحلة أم صاصا، وكانت الفرصة لتجربة السيارة الجديدة التي اشتراها صاصا على طريق السفر الطويل.

ليزا ملأت شنطة السيارة وشبكة السقف بكل ما لذ وطاب بسخاء للدرجة التي قال لها زوجها صاصا:

- كفاية يا ليز .. احنا مش رايحين صحرا.. عندهم خير ربنا هناك.

- خليك في حالك حبيبي صاصي .. أنا اعرف اعمل ايه .. وياريت تغير عربية وتجيب باص عشان يشيل كل اللي عايزه أجيبه ها ها ها .. يلا بابي صاصا إلبس "طكم " جديد تبقى فيه شاب صغير عن صاصي.

لَمَحَت في عيون أبو صاصا الدموع، ففهمت أنها تجاوزت فيما قالت، ذهبت إليه تمسح دموعه وقالت:

- اناً آسف كتير بابا .. والله ما اقصد اقول حاجة حزينة عشانك .. الله يرحمها مامي صاصا .. بابي كلنا هنموت دي حال دنيا.. والله حبيبي انا حزين حُزن العمر كله عشانه .. وحد الله ويلا قوم بابا البس حاجة جميلة لأنك جميل واحب اشوفك اخر جمال.. ايووووه يا جدعان اما تلبس قميص مخطط تبقى آخر حلاوة ومهلبية ها ها هاااااا.

تحركت السيارة يقودها صاصا بسعادة المشتاق لرؤية أمه الثانية، وبجواره الأب الذي في كل موقف يُعَلّمه كيف تكون الرجولة والمعاشرة بالمعروف والإخلاص فيها، في الخلف ليزا وقُرة عينها ولدها ناصر البالغ من العمر ستة أعوام، وصلوا جميعًا بسلام الله حتى مدخل رأس البر، وكان في انتظارهم ميمي بسيارته البيضاء الحديثة، وبجواره بطة، وفِي الخلف زكريا الذي دخل

مرحلة الشباب والتحق بكلية الهندسة جامعة القاهرة، وجواره شقيقته الصغيرة، شبيهة جدتها الراحلة شكلًا واسمًا "روحية".

اللقاء كان حميميًا، عبَّرت عنه الأحضان والقبلات وشهد الكلمات، توجهوا إلى عشة ميمي وسط زفة ترحيب من بطة التي كادت أن تطير فرحًا.

بطة:

يا سلام يا ولاد لمّا الحبايب تتجمع بعد شوقه .. والنعمة وَحْشنّي قوي .. تعالى في حضن عمتو بطة يا نوصه .. تعالى يا وله ما تتكسفش زي ابوك.

ليزا مبتسمة:

ناصر واحد كامل مش نوصه يا بطتي .. دا انا بفكر انه يتجوز الصيف الجاي.

عايزاه يبقى ولد بيرفكت مش زيي صاصي ها ها ها.

صاصا معترضًا:

الأدب حلو يا ليز.. عايزه راجل جد مبصبصاتي و عينه زايغة.

ليزا في دهشة:

- يعني إيه مصبصباتي دي يا بطة؟!

بطة في لؤم:

يعني .. يعني بعد الشر عليه قليل الأدب.

ليزا في اندفاع وصرخة خفيفة: فشر فشر ياالختي.

ضحك الجميع على لهجة ليزا الشعبية الإسكندرانية بعد التعديل بالعشرة والاختلاط حتى تسير حياتها لتثبت للجميع أنها مصرية، أخذت بطة الصبي ناصر قائلة:

- تعالى يا ناصر يا روحي أحط لك تاكل .. سيبك من الكبار الصايمين احنا أول يوم في رمضان .. يلا يا حبيبي عايز تاكل ايه؟

الصبي ناصر معترضًا:

- لا يا طنط شكرًا .. انا صايم زي مامي وبابي وجدو.

بطه في فرحة:

- حبيبي ربنا يحرسك ويجعلك دايما عارف ربنا .. على كده بتصلي يا روحي؟

- الحمد لله يا طنط كلنا بنصلي.

- ما شاء الله عليك .. عرفتي تربي يا ليزا .. ربنا يحرسك يا حبيب قلب طنط.. حلوه طنط من بقك يا " نصور" هيئ هيئ هيئ.

الدفء دبَّ أركان عِشة ميمي وأسرته بحركة أهل زوجته وأهله، وبدأ حوار الأحبة، وبالطبع لن يخلو من سيرة الحبيبة الراحلة أم صاصا وذكرياتها مع الجميع، استأذن زكريا أمّه للخروج مع ابن خاله ناصر ليذهب به يشاهد الجربي واللسان وقت غروب الشمس، كانت توصيتها له بشدّة مخلوطة بذكرى مريرة،

عندما ابتلع البحر شقيقه الأصغر "موءه" في بحر بورسعيد قبل التهجير.

آذان المغرب، والتفَّ الجميع حول مائدة الإفطار، ملتزمين بعاداتهم وطقوسهم التي اعتادوا عليها، حتى سبيل موءة بعد تجديده ووضعه أمام العِشة، وإمداده بالأنوار والتمور مع الماء البارد.

بدأت ليزا بقول بِسْم الله:

يلا نقول فاتحة على روح مامي صاصي الله يرحمه.

في لحظة غفوة من العدو الصهيوني واحتفاله بعيد الغفران، وبدون مقدمات ولا حتى علامة أو تمهيد يُذكر، في الساعة الثانية والربع من ظهر يوم السبت السادس من شهر أكتوبر عام ١٩٧٣ميلاديًا والموافق ليوم العاشر من شهر رمضان عام ١٣٩٣هجريًا، ينطلق صوت المذيع حلمي البلك ليقول:

هنا القاهرة ... جاءنا الآن البيان التالي من القيادة العامة للقوات المسلحة:

قام العدو في الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر اليوم، بمهاجمة قواتنا في منطقتي الزعفرانة والسُخنة في خليج السويس، بواسطة عدة تشكيلات من بعض قواته الجوية، عندما كانت بعض من زوارقه البحرية تقترب من الساحل الغربي من الخليج، وتقوم حاليًا قواتنا بالتصدّي للقوات المُغيرة.

تتوالى بيانات القيادة العامة للقوات المسلحة بتمهّل وثقة ومصداقية مستوعبين درس عام ١٩٦٧، ليأتي إلى شعب مصر عامةً والمُهجّرين من مدن القناة خاصةً البيان "رقم ٥"، وتَنْجلي معه بوادر الأمل بعد معاناة الغُربة، وتشرق شمس الخلاص والعودة للديار، وينطلق صوت نَفْس المذيع الساعة الرابعة وستة دقائق ليعلن:

نجحت قواتنا المسلحة في اقتحام قناة السويس واستولت على بعض النقاط القوية بها .. ورفع علم مصر على الضفة الشرقية للقناة.

هنا القاهرة

في الجزء الثالث

ننتظر زوال الكابوس الذي جثم على النفوس خلال سنوات عِجاف في المَهْجَر، وفرحة القلوب بالعودة إلى ديارهم التي اشتاقت لحركة الحياة، وضحكة الولاد أثناء اللعب في الترسينات وشوارعها الطيبة، ألعاب جندر والسبع طوبات والعقلة والمضراب، وتنطلق رائحة الصيادية من مطابخها وليلًا بكلويز حلو ولذيذ، ويعودوا لطعم السَمنيَّة والتمريَّه والزلابية، وكُلُهم شوقٌ لسماع نداء من يجوب شوارع المدينة مرتديًا البالطو الأبيض لون القلوب، يدفع أمامه عربته

الصغيرة مناديًا **(زيدة وجبنة وعجوة ... ياغنى يارب)**، مع استنشاق نسمات البحر المالح، وبساطة التّنزه على المسلة وحجر ديليسبس، وركوب المعدية من بورسعيد لعبور الأحزان نحو مدينة الياسمين المترامي على أرصفة شوارعها، متدليًا من أسوار فيلات المحبة والهدوء بورفؤاد.

تمت بحمد الله وفضله

حسن خلف حسين

السيرة الذاتية للمؤلف

حسن خلف حسين

- أديب وروائي، مواليد بورسعيد.
- بكالوريوس تجارة (محاسبة)، جامعة قناة السويس، 1980
- عضو اتحاد كتاب مصر.
- عضو الاتحاد الدولي للشعراء والأدباء العرب.
- يميل لكتابة الأدب الاجتماعي والأدب الساخر.

hassan.khalf@gmail.com

Phone : (00201017684443)

صدر له:

1. رواية "زبدة وجبنة وعجوة" (الجزء الأول)
2. رواية " أحمق ملك روحي "
3. رواية " روح وريح الجنوب "
4. رواية " ثرثرة أنجبت بعثرة "
5. رواية " امرأة من بارود "
6. رواية " فردة بيادة معطرة بالدم "
7. رواية " تائهون فوق كوكب بيداسوون " (تحت الطبع)

- *** الخواطر الشعرية من تأليف الكاتب ***
- تم الاستعانة ببعض المعلومات عن حادثة رأس البر من الصديقين

1- عباس الشواربي

2- حسين صبيح

لهما مني كل الشكر والتقدير، دامت المودة بيننا.

****